الفصل الثالث

مجالات الفكر الإسلامي ومحاوره

تحدثنا في ما سبق بأن الفكر الإسلامي هو حركة العقل والاستدلال والتفاعل مع المرجعية النصية في الإسلام (القرآن والسنة) وهو بذلك يشمل كل مجالات العلوم الإسلامية من التفسير وعلوم الحديث (دراية ورواية)، وكذلك الفقه وأصوله في عملية استنباط الأحكام والتاريخ والسير ولكن الفكر الإسلامي في مجال التدوين والتصنيف، وتبويب العلم انحصر في مجال العقيدة والدفاع عنها، وفي مجال ما يسمى في الفهرسة الإسلامية بأصول الدين وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية والتصوف والفرق الإسلامية، وكذلك في مجال دراسة الأديان المقارنة والتربية ومعالجة الأفكار والشبهات والتحديات المستجدة، والتيارات الفكرية المعاصرة، فأصبح مجال الفكر الإسلامي في التخصصات الدقيقة أعلاه ولكن تبقى التداخلات والمعالجات المشتركة قائمة في مجال التخصصات الأخرى، وفيما يأتي بيان لعلاقة الفكر الإسلامي بالمجالات القريبة والمساحات المشتركة في حركة الفكر والنظر في العلوم الإسلامية بحسب قربها من دائرة الفكر الإسلامي.

أولاً: أصول الدين.

يعد أصول الدين من أهم العلوم في الدراسات الإسلامية، وأصول الدين هو العلم الذي يدرس العقائد الإسلامية إثباتاً وتحقيقاً ودفاعاً ليكون الدارس على علم في اعتقاده ويبتعد عن التقليد، والفكر الإسلامي في جوهره يعبر عن أصول الدين ويحقق خصائصه في الدفاع عن العقيدة وإثباتها، ولعلم أصول الدين خصائص منها:

١. إن علم أصول الدين يعتمد البحث والنظر والاستدلال العقلي وسيلة لإثبات العقائد الدينية التي تثبت بالوحي.

٢. اختلف العلماء في وظيفة هذا العلم هل يثبت العقائد الدينية كما يدافع عنها؟ أم إن وظيفته هي تقريرها ودفع الشبه عما يثبت بالوحي فقط، وسبب الخلاف حول وظيفة العقل هل يثبت العقائد أم أن العقائد ما يثبت عن طريق الشرع فقط؟

(أهل السنة قالوا بأن العقائد تثبت بالشرع فقط، وذهب الشيعة والمعتزلة إلى أن العقل له دور في إثبات هذه العقائد بتولية الشرع)[١]، وهذا القول يؤكد أهمية العقل في تقرير المسائل الخطيرة، وإن العقل له قيمة عليا دعا إليه النقل وأكد عليه، (ومن مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين

---

[١] ينظر: أصول الدين الإسلامي، د. رشدي عليان ود. قحطان الدوري: ص٢٦ .

عقيدة ٣

الفكر الإسلامي

إشراف

أ.د محمد جواد محمد سعيد الطريحي

رئيس لجنة عمداء كليات العلوم الإسلامية/ جمهورية العراق

مطابق لمفردات لجنة تطوير مناهج كليات العلوم الإسلامية

تأليف

أ.د. رعد شمس الدين الكيلاني

كلية العلوم الإسلامية / جامعة بغداد

أ.د. محمد هادي شهاب

كلية العلوم الإسلامية

جامعة تكريت

أ.م.د محمد حسين عبود

كلية العلوم الإسلامية

جامعة كربلاء

الفصل الأول
التمهيد والتعريف بالفكر الإسلامي

تمهيد

عِندَمَا نَنْظُر إِلى تَأريخِ التَفْكِيرِ الإِسْلامِي وَالطَرِيق الذي سَلَكَتْهُ الأُمةُ الإسلامية على اختلاف طوائفها ومذاهبها، ولا ننزع فِيهِ إِلى مَذهَبٍ مِنَ المَذَاهِب بإحقاق أو إبطال، فإنَّنا نجد القرآن الكريم يتعرض بمنطقه في سنته المشروعة لجميع شؤون الحياة الإنسانية من غَيرِ أَن تَتَقَيَّد بِقَيدٍ أو شَرط . فَللقُرآن اصطكاكٌ مَعَ جَمِيعِ العُلومِ وَالصِّنَاعَات الخَاصّة بِأَطرافِ الحَيَاة الإنسانية وَمِنَ الواضِح اللائح من خلالِ آياتِهِ الدالة إلى التدبُّرِ والتَّفكِير والتَّذكُّر وَالتَّعَقُّل، أَنَّهُ يَحِثُّ حَثّاً بَالِغاً عَلى تَعاطي العلم وَرَفض الجَهل فِي جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّق بالسَّماويّات والأَرضيات والنبات والحيوان والإِنسان، مِن أَجزاء عالِمِنَا وَمَا وَرَاءه من الملائكة والشياطين واللوح والقلم وغير ذلك ليكون ذريعة إلى معرفة الله سبحانه ومخافته الحقة .

وما يتعلق بسعادة الحياة الإنسانية من الأخلاق والشرائع والحقوق وأحكام الاجتماع . فالقرآن يؤيد الطريق الفطري من التفكير الذي تدعو إليه الفطرة دعوة اضطرارية لا معدل عنها حق ما تدعو إليه الفطرة من اليسر المنطقي . أما عن السنة النبوية فقد اعتبرَ القرآنُ الكريمُ فِي بيان مقاصدها، وعين لهم الأسوة في رسول الله "صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّم" فكانوا يحفظون عنه، ويقلدوه في جميع سلوكه، فأصبحت السنة مورداً مِنْ

مَوَارِدِ الفِكْرِ الإِسْلامِي مِنْ حَيث ما يقوله " عَلَيْهِ الصَّلاة والسلام " والأخذ بكل ما يفعل: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ سُوْرَةُ النجم، الآية: ٤.

وفيما يخص هذا الكلام يقول أحمد شلبي:" ثم إنَّ الآيات والأحاديث لم تكتفِ بالبحثِ عَنِ العِلْمِ وَالتَّرغِيبِ فِي طَلَبِهِ وَإِنَّمَا قَدَّمَتْ هِي نفسها أَفَانِينَ مِنَ الفِكْرِ كَانَتْ مَجَالاً لِلدِرَاسَةِ وَالبَحْثِ فَخَلَقَتْ بذلك أَوَّل يَنْبُوع مِنْ يَنَابِيعِ الفِكْرِ الإِسْلامِي وقد سَارَ هَذَا اليَنْبُوعُ قَوِيَّاً مُتَدَفِّقَاً، وَسَارَتْ بِجَانِبِهِ ثَقَافَاتُ الأُمَمِ السَّابِقَة الَّتِي حَثَّ الإِسْلامُ عَلَى رِعَايَتِهَا . وَمِنَ اليَنَابِيعِ الفِكْرِيَّةِ الإِسْلامِيَّة الأَصِيلَةِ، تِلْكَ النُّظُمُ الَّتِي وَضَعَ الإِسْلامُ بُذُورَهَا إِذْ رَسَمَ لِلمُسلِمِين أَخْلاقَاً جَدِيدَةً وشَرَّعَ لَهَا فِقْهَاً، فَجَعَلَ الطَّابع الجديد للأخلاقِ أَنْ تَكُون عَمَلِيَّة، وللسِّيَاسَة أَنْ تَكُون شرعية، وَالفَلْسَفَة الإِسْلامِية أَنْ يَكُون التَّوحِيدُ أَسَاسُهَا كَمَا فَرَضَ الدِّينُ الإِسْلامِي دِينَاً عَامَّاً لِجَمِيعِ البَشَرِ وَمَعَ أَنَّ القُرْآنَ الكريم أَعْطَى صُورَةً وَاضِحَةً قَاطِعَةً عن هذه الاتجاهات فان التفاصيل الدقيقة عن ذلك تُرِكَتْ لِيَصِلْ لَهَا النَّاس عَنْ طَرِيقِ النَّظَرِ والفِكْرِ. فَلِلعَالَمِ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلَكِنْ هَلْ هُوَ قَرِيبٌ أَم بَعِيد ؟ أَو قَرِيب أو بَعِيد معاً، وأسماؤه الحُسْنَى كَثِيرَة وَلَكِن هَل هِيَ صِفَات ضرورية واقعية أو صفات تنسب لله مجازاً "[1].

وهنالك أَسئِلَة كَثِيرَة مُمَاثِلَة تَرَكَهَا القُرْآن الكريم للإنسان أي لِلعَقلِ الذي يفكر فيَحلَّهَا عَنْ طَرِيقِ التَّفْكِير وَالمُحَاوَلَة، وَيَكُون الشَّخْصُ

---

(١) الفكر الإسلامي منابعه وآثاره ، د. احمد شلبي، دار الاتحاد العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ط٥، ١٩٩٥ م. /٧٣.

مُسْلِماً إذا اعترَفَ بوحْدانِيَّةِ اللهِ سبحانه وتعالى وَبِصِحَّةِ رِسالَةِ سيدنا مُحَمَّد "صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ" مَهْمَا كانَت وجْهَة نَظَرِهِ فِي المَسائِلِ الفَرعِيَّة الأُخْرَى الَّتي يتفق فِيهَا المُسْلِمُون وَيَخْتَلِفُون دُونَ أن تؤثر على جوهر العقيدة الإسلامية، دون شك قائد ومرشد للعقل البشري، وأما نمو هذه الأفكار وازدهارها فقد ترك ليكون نتيجة الرعاية والفهم تحت نظر ومراقبة المذاهب والاتجاهات الفكرية الواعية الرشيدة.

والإنسانُ يَتَمَيَّزُ بِالفِكْرِ وَالعَقْلِ دُونَ المَخْلُوقات، فَالحَيْوانُ كما يقول الدكتور عبد القهار العاني: "يَتَمَيَّزُ عَنِ الجَمادِ بِالإدْراكِ وَيَمْتَازُ الإنسانُ عَنْ سَائِرِ الحَيْوانَاتِ بِالعَقْلِ، وَعَقْلُهُ هُوَ القُوَّةُ الرُّوحِيةُ الَّتِي يُمْكِن بِهَا التَفْكِير. وَتفكيره هُوَ نَظَرُهُ فِي مَعلوماتِهِ بِمُقْتَضَى ذَلِكَ الإرتباطِ عَلَى صُورَةٍ مَخْصُوصَةٍ تَوَصَّلَ بِهَا إِلَى إِدْرَاكِ أَمْرٍ مَجْهُول "(١).

إذاً: " التَفْكِيرُ إكْتِشَافُ المَجْهُولاتِ مِنْ طَرِيقِ المَعْلُومَاتِ وَالمُفَكِّرُ مُكْتَشِفٌ مَا دَامَ مُفَكِّراً وَلَمَّا امْتَازَ الإنْسَانُ عَن سَائِرِ الحَيْوَانَاتِ بِالعَقْلِ وَالتَّفكيرِ إمْتَازَ عَنْهُ بِالتَّنَقُّلِ وَالتَّحَوُّلِ فِي أَطْوَارِ حَيَاتِيةٍ وَنُظُمِ مَعِيشَتِهِ بِمُكتَشَفَاتِهِ وَمُستَنبَطَاتِهِ فَمِنَ المَشْيِ عَلَى الأَقْدَامِ إِلَى التَّحْلِيقِ فِي الجَوّ

(١) الفكر الإسلامي الحديث، عبد القهار داود عبد الله العاني، مطبعة عصام المكتبة الوطنية، ط١، بغداد، العراق، ١٩٨٦ م. /٤٩.

مثلاً وبقي سَائرُ الحَيوان عَلَى الحَالِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا دُونَ أَيِّ إِنْتِقَال "[1].

ومن هنا نجد المفكرين ارتفع صوتهم بالدعوة الى أمرين أهمهما: "تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفها إلى ينابيعها الأولى، واعتباره – الدين – من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وتخبطه "[2]. أما ما يواجهنا اليوم من تحديات فكرية خطيرة، فسببها غياب الأمة عن فكرها الريادي، وغيبوبتها عن حضارتها العظيمة، حيث أن الفكر الإسلامي يمتاز بربانية دعوته، وعلو مقامه على الأفكار الوضعية البشرية، فلا يسعنا الا العودة معنوياً ومادياً لبناء حضارة الفكر الإسلامي من جديد.

أخيرا نقول: لا يسعنا في دراسة الفكر الإسلامي إلا أن نختار ما يناسب واقع اليوم، وننصح بالعودة إلى منهج الاعتدال القائم على محبة الآخرين وعدم تكفير المخالفين، ونقدم لطلبة العلوم الإسلامية مادة خالية من السموم الفكرية، آملين أن يوسع المسلمون صدورهم ويهتدوا إلى الصراط المستقيم الذي سار عليه نبينا محمد وآله الأطهار، وصحابته الأخيار، سلام الله عليهم أجمعين..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(1) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد بن باديس، تحقيق: احمد شمس الدين، دار الكتب العلمية. بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/ ١٥١ –١٥٢.

(2) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي / ١٠٠.

تعريف الفكر الإسلامي

المبحث الأول: الفكر والعقل .

المطلب الأول: تعريف الفكر .

أولاً: الفِكر لغةً .

قال ابن فارس: " تردُّدُ القَلْب في الشَّيء، يقال تفكّرَ إذا ردَّدَ قلبه معتبِرا، ورجلٌ فِكِّير: كثير الفِكر "(١)، وقال ابن منظور: " الفَكرُ والفِكرُ إعمال الخاطر في الشيء، وجمعه أفكار، والفكرة كالفكر، والتفكر التأمل، والاسم الفكرُ والفكرة، والمصدر الفكر بالفتح "(٢) وفكَّرَ: " يفكِّر، تفكيرًا، فهو مُفكِّر، والمفعول مفكَّر فيه وفكَّر الشخصُ: مارس نشاطه الذِّهنيّ وفكّر في الأمر: تفكَّر فيه، تأمّله، أعمل العقل فيه ليصل إلى نتيجة أو حلّ أو قرار "فكّر في المستقبل- يفكِّر في حل مشاكله بهدوء "(٣).

ثانياً: الفكر اصطلاحاً.

قد لا نرى اختلافا في تعريف الفكر بين معناه اللغوي والاصطلاحي كما أقرَّ بذلك علماؤنا ومفكرونا .

---

(١) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م/٤ :٦٤٦ .

(٢) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ت ٧١١هـ، دار صادر، بيروت، ط١، ب.ت ٥: ٣٤٥١ .

(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م . /٣: ١٧٣ .

قال الغزالي رحمه الله: " الفكر إحضار معرفتين في القلب ليستثمر فيهما معرفة ثالثة "[1]. وعند الرازي: " الفكر جاء بمعنى "التأمل" ليدل على معنى الفكر "[2].

أما التفكر فهو: " طلب المعنى بالقلب، وذلك لأن فكرة القلب المسمى بالنظر والتعقل في الشيء والتأمل فيه والتدبر له "[3].

والتفكير: " اكتشاف المجهولات، من طريق المعلومات، والمفكر مكتشف ما دام مفكرا، ولما امتاز الإنسان عن سائر الحيوانات، بالعقل والتفكير، امتاز عنه بالتنقل والتحول، في أطوار حياته، ونظم معيشية بمكتشفاته، ومستنبطاته، فمن المشي على الأقدام، إلى التحليق في الجو مثلا، وبقي سائر الحيوانات على الحال التي خلق عليها دون أي انتقال "[4].

وعند المعاصرين الفكر هو: " ظاهرة تاريخية واجتماعية، نمت بالعمل البشري والممارسة الاجتماعية، وتطورت خلال المراحل المختلفة

---

(1) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ت ٥٠٥هـ، دار المعرفة، بيروت، ط١، د.ت / ٤: ٤٦٥

(2) المنطلقات الفكرية عند الإمام الفخر الرازي: محمد العربي/ ١٣١ .

(3) التفسير الكبير، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن ابن علي التميمي البكري الرازي الشافعي، ت ٦٠٤هـ/ ١٥: ٤١٩ .

(4) تفسير ابن باديس / ١٥١ .

في تاريخ التطور الإنساني وليست اللغة إلا تعبير الاجتماعي الخارجي لعمليات الفكـــر الداخلية"[1]

الخلاصة: هي أن الفكر الإسلامي إفراز فكر المسلمين في ظل الإسلام من أفكار اجتهادية بشرية من الفلسفة والكلام والفقه وأصوله والتصوف والعلوم الإنسانية الأخرى منذ عصر الصحابة إلى اليوم في إطار الفهم الإسلامي وذلك أنه يضم كل ما أنتجه العقل الإسلامي في كل المجالات ولكن من وجهة إسلامية، فالمنهجية الإسلامية تحفظ للفكر هيبته عندما يتم الالتزام بها، ومن هذا المنطلق نُبعد جميع الفلسفات والمعتقدات المخالفة للإسلام ليبقى الفكر نقيا خاليا من الشوائب .

---

(١) الموسوعة السياسية، عبد الوهاب الكيالي، تحقيق: مجموعة من المؤلفين، المؤسسة العربية العالمية، ط٢، ١٩٨٥م./ ٢: ٤٠٨ .

مكانة الفكر في المنظور الإسلامي:

قد يطلق على ((حركة العقل بين المعلوم والمجهول))[1]،أو ربما يعبر عنها بالفكر أو النظر،بمعنى ((اجراء عملية عقلية في المعلومات الحاضرة لأجل الوصول إلى المطلوب))[2]، وبعبارة أخرى هي مرحلة انتقال العقل من المعلومات المخزونة والحاضرة لديه، وتوظيفها باتجاه الحصول على المعلومات الغائبة عنه .

وقد وردت مفردتا الفكر والنظر، وكذا العقل في القرآن الكريم، مضافا لمفردات أخرى – سيمر بها البحث – مما لها علاقة مسيسة بمفهوم الفكر، تكررت مرات عديدة تكشف كثرتها وتكرارها، عن عظيم القرآن بالفكر الإنساني، وألفات النظر إلى أنه الأداة الأولى التي تهبه سبل الوصول الى الحق من جهة، وتميزه عن سائر المخلوقات الأخرى من جهة أخرى، والحق إن المتأمل لمضامين الآيات التي تحمل بين طياتها تلكم المفردات يلمس أنها أولا: تكشف عن مكانة الإنسان في الدين الإسلامي، التي منحته التكريم الإلهي قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ سورة الإسراء/ ٧٠، دون غيره من الكائنات الأخرى، التي جعلها سبحانه طوع أمره، وسخرها له، تحقيقا لهذا التكريم، قال جل شأنه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ

---

(1) الفضلي: عبد الهادي: أصول البحث، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي قم- ايران / ٥٣.

(2) م. ن/ ٥٣.

﴿ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۚ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ ﴾ سورة النحل/١٢، ثم أن هذا التسخير بذاته، دعوة لإعمال العقل وتثوير الفكر، إذ يقول سبحانه في ذيل الآية آنفا: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ سورة الرعد/٤.

فإذا علمنا ذلك استوعبنا حقيقة المكانة العظيمة للفكر، والمقام الذي يتمتع به، تبعا للمقام الذي يحوزه حامله وهو الإنسان.

ثانيا: أنها تتجلى عن عظمة الدين الإسلامي وعالميته وإنسانيته، وأنه عقيدة قائمة على العلم والمعرفة، وأن وسيلته في كسبهما هو العقل والفكر، دون سائر الأديان الأخرى، التي جعلت بينها وبين العقل والفكر حاجزا، فأضحت هي في جانب، وعقل الإنسان في جانب آخر، فعطلت العقل وحجمت الفكر، وقتلت أسباب النظر فيه، وأعطته مساحة واسعة من السير في المجهول، والغرق في لجج الظلم والجهل، وسمحت له، بل دفعت به إلى عبادة مخلوقات، خلقت أصلا لتكون في خدمته.

والحق إن تعطيل أدوات الفكر عند أصحاب هذه الأديان، التي لا تشمل الأديان الأرضية أو البشرية، كعباد الشمس والقمر والنجوم والبقر، وسواهم، بل تشمل حتى الأديان السماوية، التي رفعت السماء يدها عنها، ولم تتكفل بحفظها أو حفظ كتبها، ونسختها بدين الإسلام،

فهي الأخرى، منحت العقل وعقلت الفكر، حين سمحت لمعتنقيها بالإشراك بالله، وإدخال البدع والأكاذيب فيها.

محورية الفكر في القرآن الكريم:

زخر القرآن الكريم بالآيات الداعية إلى إعمال الفكر في هذا الخلق المترامي، وبما يحتويه من عجائب صنع الله تعالى، ولو أننا أردنا استقصاء الآيات الواردة في الحث على التفكر والحض عليه، لاستلزم المقام مباحث ومباحث، ولكننا سنعرض ما يفي الغرض ويحقق المطلوب.

من هنا فإن كتاب الله العزيز تارة يحرك الأفكار نحو الخلق، كقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورة الرعد/٣، وقوله جل شأنه مبينا مكانة الماء في بث الحياة في أنحاء هذا الكون المترامي، وأنه من أهم الأسباب التي منحت الكون الحياة، وقوله تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورة النحل/ ١١، ملفتا الأنظار ومحركا الأفكار باتجاه حقيقة، اختلاف الثمرات وتنوعها، مع كونها تتفتق من ماء واحد، وتراب واحد، وقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام)، حينما سئل عن طعم الماء فقال (عليه

السلام): ((طعم الماء طعم الحياة))[1] فسبحان الذي خلقها وسواها وفطرها، من كائن لا طعم له ولا لون ولا رائحة، ومن تراب أصم، ليهب تلك الحيوية والجمال الفائق والطعم الرائق والألوان المتعددة لتلك الأصناف المتنوعة من الفواكه والخضر والنباتات، التي خلقت لتشبع رغبة الإنسان، وتلبي احتياجاته الأساسية من البروتينات والفيتامينات، وسواها من العناصر الغذائية التي يحتاجها جسم الإنسان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾، وتارة أخرى يهيج أسباب النظر والتأمل في العقول نحو عجيب مخلوقاته سبحانه، قال جل عزه كاشفا عن أسرار النحل: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النحل/٦٩، وتارة ثالثة يدعو الى التأمل في ماهية الخلق، وكيفية تناسل وتكاثر بني البشر، قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الروم/٢١، مؤخرا الرحمة عن المودة، لأن الزوجين يحتاجان إلى الرحمة في كبرهما، أكثر مما يحتاجان إلى المودة، فهما أأنس بالمودة في شبابهما، وأحوج للرحمة في شيخوختهما، ولا يخفى ما في لفظة (لتسكنوا) من إشارة واضحة على العلاقة الزوجية التي

---

(١) الكليني: الكافي ٦/٣٨١.

جعلها المولى سبحانه، منبعا للأمان والأطمئنان اللتان يسعى اليهما الإنسان، ويطمح على الدوام إلى الحضوة بهما.

ومما يلاحظ أنه سبحانه قال: ﴿ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، في ذيل كل آية من الآيات السابقة آنفا مستخدما (لام) التأكيد، ولم يقل (آيات لقوم يتفكرون)،وهو ما يدعو بطبيعة الحال، بل يؤكد أهمية وخطورة التأمل والتفكر في عقل الإنسان ووجدانه، كونهما يوصلانه الى حقيقة كينونته وكينونة كل المخلوقات، وهو ما يسوقه عن طواعية واختيار محض الى الإيمان بالخالق سبحانه وتعالى .

ومما تجدر الإشارة اليه أن عدد الآيات التي وردت منتهية بلفظ (يتفكرون)، هي عشر آيات بينات، هذا في قبال آيات أخرى تناولت ألفاظا ذات صلة، وردت لتؤكد ذات المعنى، في تحريك طاقات العقل نحو التفكر والتأمل، كلفظة يفقهون ويعلمون ويتذكرون وغيرها، قد يطول المقام بالوقوف عليها جميعا، وقد وردت لفظة (يعقلون)نحو اثنين وعشرين مرة في كتاب الله، متنوعة الأهداف والغايات بين دعوة أصحاب الألباب للتفكر في خلق الله مرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ...وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ سورة البقرة/ ١٦٤، وأخرى في حال الإنسان، قال سبحانه: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ﴾ سورة

الصافات/ ٦٨، والتي تسفر عن حقيقة أن طول عمر الإنسان، لا يعد - دائما- نعمة يسعى الإنسان لنوالها، لأنها قد تكون ابتلاء يحلم الإنسان بالتخلص منه، وثالثة في شأن الكفار وما انطوت عليه سرائرهم من عمى البصيرة، دون عمى البصر قال جل شأنه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ سورة الحج/ ٤٦، وغيرها من الغايات المتنوعة والأهداف المختلفة، التي أراد النص القرآني من ورائها، إثارة مكامن الفكر ومصادر التأمل في عقل الإنسان، غير أن عدد الآيات التي انتهت بقوله تعالى: ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، هي أربعة آيات، كما وردت مفردات أخرى مساوقة لسابقاتها، وداعية الإنسان إلى التفكر في خلق الله سبحانه، قال جل شأنه: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ سورة الفجر/ ١٧ ؟؟؟.

والآية في الواقع لا تخلو من جملة من اللطائف والنكت، فقد قال الباري سبحانه (ينظرون)، ولم يقصد النظر بالعين المجردة فحسب، بل هي حض على التأمل والتدبر بخلق الله سبحانه، وإلا فإن مجتمع الجزيرة العربية مجتمع ألف الإبل، وهي دون أنظارهم آناء الليل وأطراف النهار، بالتالي فهي دعوة للتأمل والتفكر، ثم أنه سبحانه اختار الإبل دون غيرها من الحيوانات كونه من ذات البيئة التي ينتمون اليها.

أهمية الفكر عند أهل البيت (عليهم السلام):

سار أهل البيت (عليهم السلام)على سنة ونهج جدهم سيد الكائنات(صلى الله عليه وآله) في دفع الناس نحو التفكر والتدبر، وقد انعكس ذلك حتى على أدعيتهم الطاهرة.

واذا كان سائر الخلق يعرفون الله سبحانه وتعالى، عن طريق الرسل والأنبياء (عليهم السلام)، قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ سورة الأنعام/٤٨، وقال جل شأنه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾سورة الإسراء/١٥، أو عن طريق مخلوقاته كالشمس والقمر والنجوم والجبال، وغيرها من عجائب صنع الله، التي تلزم العاقل بضرورة وجود خالق لها. وفي القرآن الكريم دعوة صريحة للتفكر في آيات الكون للوصول إلى الله تعالى عند طريق الفكر.

أقول إذا كان هذا هو السبيل الذي أقره المولى سبحانه لبني البشر، في معرفته وعبادته، وقبله منهم ؛لأنه يتلائم وقدراتهم العقلية وسعة تفكيرهم، فإن الأمر يختلف عند أهل بيت العصمة (عليهم السلام)،إذ أنهم عرفوا الله عن طريق الله، لا عن طريق مخلوقاته؛ لأنها المعرفة الأليق بجلال الله وبعظمته سبحانه، وفيما يأتي بعض أدعيتهم التي تكشف عن هذه المعرفة العالية السامية:

أولها: دعاء الصباح للإمام علي (عليه السلام)،وما يتضمنه من معان روحانية ونسمات عرفانية، تدفع قارئه والمتطلع لها، الى التأمل في الذات الإلهية المقدسة، والتدبر في عجيب مخلوقاته، حتى أن أهل اللغة والبلاغة ليقفون حائرين، أمام السبك البياني الأخاذ، الذي درجت عليه فقرات الدعاء، حيث يقول(عليه السلام): ((اللهم يامن دلع لسان الصباح بنطق تبلجه، وسرح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه، وأتقن صنع الفلك الدوار في مقادير تبرجه، وشعشع ضياء الشمس بنور تأججه، يامن دل على ذاته بذاته.....الخ))[1]،حيث أن المقطع الأول من الدعاء، ـ الذي شبّه الصباح بالكائن الحي الذي له لسان دلع بنطق تبلجه، أي أخرج وأشرق ضياء الشمس المرتفع والمتألق بالإضاءة والإشراق ـ، يذكِرنا، بقوله تعالى: ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ سورة التكوير/١٨، الذي تضمن ذلك التشبيه الرائع للصبح بالإنسان.

وثانيها: دعاء عرفة، الذي جادت به علينا شفتا سيد الشهداء(عليه السلام)،وهو يناجي ربه سبحانه، حين يقول فيه:((كيف يستدل بك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار ٨٤/٣٣٩.

ولاتزال عليها رقيبا.....الخ))[1]،ولا يدري المتأمل في النفحات الإلهية لتلكم الكلمات، كيف صِيغت، وكيف صُبت بهذا القالب العرفاني، الذي انفرد به أهل البيت(عليهم السلام)،دون غيرهم، فهم أجدر من يمتطي صهوة الدعوة إلى الله سبحانه؛ لأنهم أهل التوحيد وأساسه والداعين إليه والمروجين له، وما كلمات دعاء عرفة إلا مثالا حيا وأنموذجا راقيا لذلك، وهي تنقل إلينا تلك النسمات .

وثالثا: دعاء السحر للإمام زين العابدين وسيد الساجدين وهو يناجي ربه في السحر، وقد غارت النجوم ونامت العيون وهدأت الأصوات، بكلمات تعرب، عن عشق وخشية مفرطتين من الله، حين يقول:((الهي بك عرفتك، وأنت دللتني عليك، ودعوتني إليك، ولولا أنت لم أدر ما أنت)) [2]، وغيرها الأدعية والمناجاة، التي تكشف عن استخدام أهل البيت(عليهم السلام) لغة الدعاء، في حث الناس على التأمل والتفكر من جهة، وكونها معربة عن حقيقة مكانتهم، وأنهم أعرف الخلق بالله سبحانه، وأخوفهم منه، وأنهم الأولى والأجدر في الدعوة الى الله سبحانه، وحض الناس باتجاه إعمال العقل وتثوير الفكر من جهة أخرى.

---

[1] المجلسي: بحار الأنوار: ٦٤/ ١٤٢.

[2] الريشهري: محمد: ميزان الحكمة ٣/ ١٨٩٠.

وفي دعاء الأئمة (عليه السلام) صورة عديدة الى التفكر للوصول إلى الحق عن طريق التفكر في الخلق والآء الله تعالى والمعروف فان الدعاء اعمق أنواع العبادة.

والحق إن من يروم أن يعرف التوحيد حق معرفته، ويسعى للتقرب من الخالق سبحانه، لا محيص له من الغوص في أعماق تلك الأدعية وسبر أغوارها؛ لأنها تسفر عن التوحيد الرائق للإنسان واللائق بالذات الإلهية المقدسة.

من هنا فلا غرابة أن ينفرد أمير المؤمنين(عليه السلام)، بمعرفة خاصة توصله إلى الله، وذلك حين سأله يهودي، قائلا: فأخبرني أعرفت الله بمحمد أم محمدا بالله؟ فقال: عليه السلام: ما عرفت الله بمحمد ولكن عرفت محمدا بالله؛ لأن محمدا محدود مخلوق، وعبد من عباد الله، اصطفاه الله واختاره لخلقه، وألهم نبيه، كما ألهم الملائكة الطاعة، وعرفهم نفسه بلا كيف ولا شبه[1].

وهو ما يكشف لنا عن حقيقة عبادة الأحرار التي تميز بها أمير المؤمنين، حين يقول:((ما عبدتك خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك، ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك))[2].

---

[1] الأميني(ت١٣٩٢هـ): الغدير، ط٣(١٣٩٢هـ)، دار الكتب العربي بيروت ـ لبنان ٧/ ١٨١

[2] الكليني: الكافي ١/ ٣٣٧.

لذا فقد ورد عن أئمة الهدى(عليه السلام)،قولهم: ((اللهم عرِفْني نفسك، فإنك إن لم تعرِفْني نفسك، لم أعرف نبيك، اللهم عرِفْني رسولك، فإنك إن لم تعرِفْني رسولك لم أعرف حجتك، اللهم عرِفْني حجتك، فإنك إن لم تعرِفْني حجتك ضللت عن ديني)) [1]، ودعائه (عليه السلام)، مضافا لبيانه حقيقة التوحيد، ومرتبة النبوة، فهو بصدد بيان مكانة الإمامة وخطورتها ؛لذا نقل لنا التفتازاني (ت٧٩١هـ) في مقاصده، ما هو قريب من ذلك، حديث الرسول(صلى الله عليه وآله):((من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)) [2].

والأدعية لا تقل مقاما عن الأحاديث المنقولة عنهم في تشجيع العباد على التنقيب العقلي والبحث الفكري في بدائع صنعة الله، فقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام)، قوله:((إياكم والتفكر في الله، فإن التفكر في الله لا يزيد إلا تيها)) [3]، ثم أن الإمام يبين سبب ذلك فيقول:((إن الله عز وجل لا تدركه الأبصار ولا يوصف بمقدار)) [4]، كما ورد عنه (عليه السلام) قوله: قال أمير المؤمنين(عليه السلام):((التفكر

---

[1] المجلسي: بحار الأنوار ٦٧/ ١٨٦.

[2] التفتازاني(ت٧٩١هـ): شرح المقاصد في علم الكلام، ط١(١٤٠١هـ)، دار المعارف النعمانية ٢: ٢٧٦

[3] المجلسي: بار الأنوار ٦٧/ ١٨٦

[4] المجلسي: بار الأنوار ٦٧/ ١٨٦

يدعو الى البر والعمل به)) [1]، ((وعن الحسن الصيقل قال: قلت لأبي عبدالله(عليه السلام):تفكر ساعة خير من قيام ليلة، قال: نعم، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): تفكر ساعة خير من قيام ليلة، قلت: كيف يتفكر؟ قال: يمر بالدار والخربة، فيقول: أين بانوك؟ أين ساكنوك؟ مالك لا تتكلمين)) [2]، والحديث ترجمان وتطبيق عملي لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ سورة الفرقان/ ٤٠،ويروي المحدثون عن الإمام الصادق(عليه السلام) ومحاججاته مع الدهريين، ومنهم ابن أبي العوجاء، الذي كان من جملة محاوراته مع الإمام قوله:((ذكرت الله فأحلت على غائب، فقال: أبو عبدالله: ويلك كيف يكون غائبا من هو مع خلقه شاهد، وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم ويرى أشخاصهم ويعلم أسرارهم، فقال ابن أبي العوجاء: أهو في كل مكان؟ أليس إذا كان في الأرض كيف يكون في السماء؟ فقال أبو عبدالله(عليه السلام): إنما وصفت المخلوق الذي إذا انتقل عن مكان وخلا منه مكان، فلا يدري في المكان الذي صار اليه ما يحدث في المكان الذي كان فيه، فأما الله العظيم الشأن الملك الديان فلا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان،

---

(١) الريشهري: محمد: ميزان الحكمة ٣/١٨٩٢.

(٢) البرقي: أحمد بن محمد(ت٢٧٤هـ):المحاسن، تحقيق جلال الدين الحسيني، ط(١٣٧٠هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران ١/٢٦.

ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان))[1]،وروي عن هشام بن الحكم عن الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام):((يا هشام إن لكل شيء دليلا، ودليل العقل التفكر، ودليل التفكر الصمت، ولكل شيء مطية، ومطية العقل التواضع))[2]وهكذا في كثير من الأحاديث التي يقصر المقام على احصائها.

---

[1] الكليني: الكافي ١/ ١٢٦.

[2] م.ن ١/ ١٦.

أهمية الفكر عند جمهور علماء المسلمين:

ينقل لنا الآلوسي (ت١٢٧٠هـ)في تفسيره عن ابن المنذر عن عون قال: سألت أم الدرداء، ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟؟- وهو أحد أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله)-، قالت: التفكر والاعتبار، كما ينقل لنا عن ابن أبي الدنيا عن عامر بن قيس-قوله: سمعت غير واحد لاأثنين ولا ثلاثة من أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم)يقولون: أن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر[١]. الأمر الذي ينقل تأثر الصحابة بمضمون الآيات، التي تدعوهم إلى الإعتبار والاتعاظ والتفكر، كونها ركيزة مهمة من ركائز الإيمان.

ويذكر لنا ابن عربي في تعليقه على قدرة وحد العقول وأن لها:((حد اتفق عنده من حيث هي مفكر وآية مناسبة بين الحق الواجب الوجود لذاته وبين الممكن...الخ))كلامه[٢]،وهو بصدد بيان محدودية العقل والفكر – كما مر علينا – في ادراك كل الغيبيات، وقد ورد في تفسير الرازي لقوله تعالى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ سورة الإنعام/٩٨، قوله: ((لقوم يتفكرون ويتأملون ويستدلون بالمحسوس على المعقول وينتقلون من الشاهد الى الغائب))[٣]، وهو تأكيد على مهمة الفكر

---

[١] ظ: الآلوسي: تفسير الآلوسي ١٥٩/٤.

[٢] المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣٤٥/٣.

[٣] الرازي: تفسير الرازي ١٠٢/١٣.

تتلخص في استخدام العقل في المحسوس الشاهد، للوصول الى المعقول الغائب.

ويذكر لنا ابن كثير(ت٧٧٤هـ)، بعض معوقات التفكر وهي الغفلة، وذلك حين يتناول تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ سورة يوسف/١٠٥، حيث يقول: ((يخبر الله تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله، ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض، من كواكب زاهرات ثوابت وسيارات، وأفلاك دائرات والجميع مسخرات))[1]، وقد كان من نتائج هذه الغفلة، انصراف الناس عن معرفة الله والامتناع عن شكره سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾، وقال سبحانه: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ سورة البقرة/٢٤٣، أما الشاكرين فإن المولى سبحانه وتعالى، جازاهم بأن جعلهم يفقهون آياته سبحانه، ويتمتعون بنعمة التفكر بآلائه، قال جل شأنه: ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ سورة الأعراف/٥٨.

---

(١) ابن كثير(ت٧٧٤هـ): تفسير ابن كثير، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، ط(١٤١٢هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.لبنان ٢/٥١٢.

تفسير القرآن الكريم والفكر الإسلامي

القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ((ناطق لا يعيى لسانه، وبيت لا تهدم أركانه، وعزّ لا تهزم أعوانه))[1]،محرك العقول، ومنجم العجائب والغرائب، ومهيج دفائن الأفكار، ولا يمكن أن نجد أفضل ممن هو قرين القرآن ولصيق بيانه، - القرآن الناطق، العالم بطرق السماء أكثر من طرق الأرض - علي(عليه السلام)،علما بكتاب الله، ووصفا لمكانته وعظمته، حيث يقول:((كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله))[2]، وقوله (عليه السلام): ((وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به))[3].

من هنا فإن((القرآن الكريم كتاب أنزل لكافة أفراد البشر على اختلاف مستوياتهم وقابلياتهم، فكانت عباراته للعوام، وإشاراته للعلماء، ولطائفه للأولياء، وحقائقه للأنبياء (عليهم السلام))[4]،وهو كتاب متجدد، في كل زمان ومكان، يهب بأرياحه على من استنطقه، وقلّب النظر

---

(١)محمد جواد مغنية(ت ١٤٠٠هـ):في ظلال نهج البلاغة، ط١(١٤٢٧هـ)، مطبعة ستار ٢/٢٧٧.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٨/٢٨٧.

(٣) م.ن ١/٢٨٨.

(٤) الوحيد الخراساني(معاص)ر: منهاج الصالحين ١/١٥٠.

فيه وأشغل الفكر في معانيه، وأعمل التأمل في مراميه، وهو ناسخ الكتب السماوية، وملزم للناس باتباعه ؛لأن فيه حل لكل مشكلة، وفيه تبيان لكل شيء. فالقرآن الكريم هو محرك الفكر ومستجلب النظر.

ولما كان التفسير هو العمل العقلي لبيان معاني الكتاب بالاستناد على ضوابط وصفها العلماء، سنتناول في هذا المبحث جملة من المطالب، التي ستقف على تلكم المعاني، كمحاولة للكشف عن نزر يسير مما يتعلق بكتاب الله الخالد.

أصناف التفسير القرآني:

التفسير في اللغة((مأخوذ من فسر المشتق بالاشتقاق الكبير من السفر، وهو الكشف والظهور . يقال: أسفر الصبح إذا ظهر، وأسفرت المرأة عن وجهها إذا كشفته، أو هو مأخوذ من فسر يفسر، كضرب يضرب، أو كنصر ينصر، فسرا والفسر: هو الإبانة وكشف المغطى، تقول: فسرت الشيء إذا بينته، وقال اللغويون أيضا: إن التفسير هو كشف معنى اللفظ وإظهاره)) [1]، وقد عرفه الزركشي(ت٧٩٤هـ) بأنه: ((علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه . واستمداد ذلك من علم اللغة

---

[1] الطبرسي (ت٥٤٨هـ): تفسير مجمع البيان، تحقيق لجنة من العلماء والمحققين المختصين، ط١ (١٤١٥هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت. لبنان ١/١٧.

والنحو والتصريف، وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ))[1].

وعرفه بعض الباحثين المعاصرين بأنه: العلم الباحث عن تبيين دلالات الآيات القرآنية على مراد الله تعالى، وبعبارة أخرى هو إزالة الخفاء عن دلالة الآية على المعنى المقصود[2].

أي إن التفسير هو الكشف عن مراد الله تعالى من جهة بيان أحكامه وعبره وحِكمه، ونحو ذلك مما هو متعلق بكتاب الله العزيز.

لقد ترك لنا التراث الفكري الإسلامي المتعلق بكتاب الله العزيز، بصمات فكرية واضحة .

كشفت عن حجم المساحة الواسعة التي، كان يتحرك بحدودها المفسرون، ممن أوتوا حظا وافرا وتوفيقا عظيما، في الغور في أعماق النص القرآني، واستخراج مكنوناته .

وقد أفرزت العقلية الإسلامية ألوانا من التفاسير المختلفة، عكست التوجهات الفكرية المختلفة، مستقاة من مدارس ومذاهب إسلامية متنوعة .

---

(١) الزركشي(٧٩٤هـ):البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١(١٣٧٦هـ)، دار احياء الكتب العربية ١/١٣.

(٢) جعفر السبحاني(معاصر): المناهج التفسيرية في علوم القرآن، نشر مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)/١١.

غير أنها مع اختلافها، فإنها تتفق جميعا في مرجعية النقل والعقل، واعتمادهما مصدرا في تفسير القرآن الكريم.

من هنا فهناك لونان من التفاسير، هي التفاسير النقلية والتفاسير العقلية، وإذا كان تفسير القرآن في السنوات الأولى المتاخمة لعصر الرسالة المباركة.

غير أنه كلما ابتعد الجهد التفسير عن عصر الرسالة، كلما كان أدعى لأن يدخل ما ليس في التفسير فيه .

وكيفا يكن الأمر ـ وبناء على مرجعية العقل والنقل في التفسير ـ فإنه يمكن أن نصنف التفاسير على النحو الآتي، وفقا للمرجعية المذكورة:

فالتفسير العقلي: هو التفسير الذي يُعتمد على الفهم العميق لمدلول العبارات القرآنية، وإعطاء الفكر مساحة كبيرة للغوص في أعماق الآية [1]، ومن نماذجه:

١. التفسير بالعقل الصريح.

٢. التفسير على ضوء المدارس الكلامية.

٣. التفسير على ضوء السنن الاجتماعية.

٤. التفسير على ضوء العلم الحديث.

٥. التفسير الباطني.

---

[1] ظ: جعفر السبحاني: المناهج التفسيرية في علوم القرآن/٦.

٦. التفسير الصوفي.

أما التفسير النقلي: أو التفسير بالمأثور فهو((التفسير المعتمد على ما جاء في القرآن نفسه من تبيان لبعض آياته))[1]،وربما أُثر عن أهل البيت (عليهم السلام)،والصحابة الكرام، ومنها:

١. تفسير القرآن بالقرآن.

٢. تفسير القرآن باللغة العربية وقواعدها.

٣. التفسير بالمأثور.

وربما أضاف بعضهم للتقسيمات المرة آنفا، تقسيمات جديدة، مثل: التفسير الكلامي: الذي يتناول الآيات المنطوية على الحجج الكلامية المثبتة لأصول الدين، والتفسير الفقهي أو تفسير آيات الأحكام: الخاص بالآيات المتعلقة بالأحكام الفقهية، كآيات الأحكام ونحوها، والتفسير العلمي: الذي مرت الإشارة إليه في المطلب السابق، وهو التفسير الذي يتناول الآيات ذات البعد العلمي، كالآيات الكونية المتحدثة عن حركة الشمس والقمر والكواكب وكروية الأرض ونظائره.

والتفسير الإجتماعي: وهو التفسير المتعلق بالآيات المتعلقة بالجوانب الإجتماعية كبناء الأسرة، ومطلق العلاقات الإجتماعية والإرث ونحوها، والتفسير التدبري: وهو التفسير((الذي يعتمد غالبا على الفهم العميق والإدراك المركّز لمعاني الألفاظ القرآنيّة بعد إدراك مدلول

---

[1] ابن كثير: تفسير ابن كثير ١/ ١٨ المقدمة.

العبارات القرآنيّة وفهم دلالاتها فهما عميقا ودقيقا، ثم ربطها بواقع الحياة البشريّة، وفهم أبعادها وجوانبها المختلفة في الآمال والآلام والطموحات والمشاعر والتفكّرات))[1]،والتفسير الشمولي: وهو التفسير الجامع بين كلمات القرآن وأحاديث المعصومين(عليهم السلام)، ونحوها.

لقد أعطى النص القرآني ميدانا واسعا لعلماء المسلمين - من المفسرين والباحثين في الشأن القرآني - لأن تجول أفكارهم وتصول عقولهم، في رحاب القرآني، الذي لا يمكن لأحد أن يحيط بحدوده ؛كون أن النص القرآني، كما مر علينا، نص ولود ومتجدد ومعطاء، ولا ينضب عطائه مادامت السموات والأرض، ولا ينال عطائه، إلا من أخلص النية ووُهب التوفيق وعقد العزيمة، لينال شرف التسابق في مضمار القرآن ليحضى بسعادة الدارين.

ومع أن المنظومة الفكرية الإسلامية حافلة، بالمفسرين وزاخرة بالعلماء، الذين افنوا أعمارهم في خدمة القرآن، وأورثوا لنا تراثا قرآنيا فاخرا، أغنى الفكر الإسلامي والمكتبات الإسلامية على حد سواء، لكنه لا مناص من التنبيه إلى أن رسول الرحمة(صلى الله عليه وآله)،حصرا مهمة التفسير بجهة واحدة فحسب، دون غيرها؛ وما ذلك – في تقدير الباحث– إلا للأسباب الآتية:

---

[1] الشيرازي: محمد (ت١٤٢٢هـ): تقريب القرآن إلى الأذهان، ط١ (١٤٢٤هـ)، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع بيروت. لبنان١/٤٨.

أولا: امتثالا لأمر الله تعالى، الذي أمره بالإعلان عنها والتصريح بحقيقتها؛ إتماما للحجة على العباد، وهم أهل البيت (عليهم السلام)، فقد روى الإمام أحمد ابن حنبل (ت٢٤١هـ)،وغيره ((عن أبي سعيد قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):انى تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض))[1].

ثانيا: لأنهم صنو القرآن، وأهل بيت النبي(صلى الله عليه وآله). وأهل البيت أدرى بالذي فيه - وهم الإمتداد الطبيعي لجدهم(صلى الله عليه وآله)، وهم المنصبون من قبل الله في حفظ كتاب الله الشريعة.

لذا فهم الأدرى بمراد الله تعالى، والأعلم بحدوده وأحكامه سبحانه وتعالى، وهم الأجدر والأقدر والأصدق على إيصال رسالة جدهم إلى الناس، بل هم الأقرب إليهم والأكثر أثرا في نفوسهم، لما يتمتعون به من صفات الكمال وسمات الجلال، التي لم يحض بها غيرهم، ودونك تاريخهم وسيرتهم، لتبحث بين ثناياها لتجد ما يسرك من كرام الخصال وطاهر الفعال، ولتعلن عن عجزك التام في أن تجد لهم زلة في فعل أو تقصير في عمل، أو تحضى من أحدهم عجزا في عبادة أو سوء في عادة.

---

(١) احمد بن حنبل(ت٢٤١هـ): المسند، دار صادر بيروت، لبنان ٣/١٣+ الحاكم النيسابوري ٣/١٠٩، والهيثمي: مجمع الزوائد ١/٨٨، وغيرهم كثير.

ثالثا: لكي لا تتعدد الطرق والمشارب، ويكثر الخلاف المذموم، أما الخلاف في التأويل على وفق الضوابط فلا بأس به، لأن في هذا الاختلاف يصبح الخوض بتفسير آيات القرآن الكريم، ميدانا للتنازع والتناحر، من أجل إثبات صحة العقائد والمذاهب، فيسعى كل مذهب إلى إثبات أحقيته، دون غيره من المذاهب، من خلال تأويل الآيات، وحملها على غير مرادها، فتختلف السبل وتكون أسباب التيه والضلال أقرب الى الناس من أسباب الهدى، فيكون ذلك مدعاة لظهور فرق الضلالة ومذاهب الفساد، وهو ما حصل فعلا، وها هي الفرق التكفيرية والمذاهب المتطرفة التي، أولت آيات الكتاب بحسب أهوائها، لتبيح تكفير المسلمين ووجوب قتلهم وهتك حرماتهم، وغيرها من الجرائم، التي يندى لها ويأنف ويستنكف من ارتكابها حتى الحيوان.

المطلب الثاني: العقل .

أولاً: تعريف العقل لغةً .

يقول ابن فارس: " العين والقاف واللام أصلٌ واحد منقاس مطرد، يدلُّ عُظْمُه على حُبْسة في الشَّيء أو ما يقارب الحُبْسة. من ذلك العَقْل، وهو الحابس عن ذَميم القَول والفِعل . قال الخليل: العَقل: نقيض الجهل. يقال عَقَل يعقِل عَقْلا، إذا عرَفَ ما كان يجهله قبل، أو انزجَر عمّا كان يفعلُه. وجمعه عقول." (١) " والعاقل من يحبس نفسه ويردها عن هواها أن يمسكها ويمنعها، وقيل العقل التمييز الذي يميز الإنسان عن الحيوان " (٢).

والأريب " العاقل، والإرْبُ: العقل " (٣).

والعقل عند الزبيدي هو: " قوة المهيأ لقبول العلم، وبه يستنبط العاقل الأمور "(٤).

---

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس ٤: ٦٩ .

(٢) لسان العرب / ١١: ٤٥٨

(٣) أدب الكتاب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت ٢٧٦هـ، تحقيق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ب.ت / ١: ١٧ .

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، ت ٨١٧هـ، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٣، ب.ت / ٨: ٢٥ .

وقال الفيروزآبادي: "وعقل الدواء بطنه يعقله، ويعقُلُه: أمسكه، والشيء: فهمه، فهو عَقول، والبعير: شدَّ وظيفه إلى ذراعه "[1].

ثانياً: تعريف العقل اصطلاحا .

العقل: "جوهر روحاني خلقه الله تعالى متعلقا ببدن الإنسان، وقيل العقل نور في القلب يعرف الحق والباطل، وقيل العقل جوهر مجرد عن المادة يتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف "[2].

وقيل العقل " قوة للنفس الناطقة وهو صريح بأن القوة العاقلة أمر مغاير للنفس الناطقة وأن الفاعل في التحقيق هو النفس، والعقل آلة لها بمنزلة السكين بالنسبة إلى القاطع، وقيل العقل والنفس والذهن واحد إلا أنها سميت عقلا لكونها مدركة وسميت نفسا لكونها متصرفة وسميت ذهنا لكونها مستعدة للإدراك، وما يعقل به حقائق الأشياء قيل محله الرأس وقيل محله القلب "[3].

ونقل القرطبي رحمه الله تعالى أن العقل: " هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعاني وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله فيبعد عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحي والعقل عرض

---

(1) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٢٦هـ/ ١٩ .

(2) التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، ت ٨١٦ هـ، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١: ١٩٧ .

(3) المصدر السابق .

يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا ومشتهيا. وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري والأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني وغيرهما من المحققين العقل هو العلم بدليل أنه لا يقال عقلت وما علمت أو علمت وما عقلت"(١).

أما من وجهة نظر الفلاسفة:

فالعقل: " جَوْهَرٌ لطيف في البَدَنِ ينبثّ شعاعه منه بمنزلة السِّرَاج في البيت، يفصل بين حَقَائق المعلومات. ومنهم من قال: إنه جَوْهَرٌ بسيط" (٢) وقد جمع جميل صليبي آراء الفلاسفة في العقل فقال:. " أما الفلاسفة فإنهم يطلقون العقل على المعاني التالية: الأولى ان العقل جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها، والثانية ان العقل قوة النفس التي يحصل تصور المعاني وتأليف القضايا والأقيسة، والثالثة أن العقل هو قوة الإصابة في الحكم، والرابعة ان العقل قوة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العلمية " (٣).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، ت ٦٧١ هـ، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣ هـ/ ١: ٣٧٠.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨ م/ ٢: ٣٠.

(٣) المعجم الفلسفي، الدكتور جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، ط٢، بيروت، ١٩٨٢ / ٢: ٨٥. ٨٦.

اما بعيدا عن هذه الاختلافات التي تدل على اختلاف مذاهب المفكرين في الاهتداء إلى تعريف العقل، فيعرفه شيخ الإسلام تعريفاً مستنبطا من القرآن الكريم مباشرة، حيث يشير الى انه الآلَة التي تقوم بالعاقل فيميز بها ويدرك بواسطتها المدركات، لأنه هنا مناط التكليف والفارق بين الحق والباطل، او بين الخير والشر. فيقول رحمه الله: " العقل في كتاب الله وسنة رسوله وكلام الصحابة والتابعين وسائر أئمة المسلمين: هو أمر يقوم بالعاقل، سواء سُمِّي عرضاً أو صنعة، ليس هو عينا قائمة بنفسها "[1]، وهذا التعريف يؤكد على أمر وهو ما ذهب الأشاعرة إليه من أن الشرع سابق للعقل على عكس المعتزلة (الذين أعطوا للعقل دوراً أولياً وسابقاً على الشرع، وجعلوا الدليل السمعي تابعاً للدليل العقلي غير ان أسبقية الدليل العقلي على الشرعي، لا يعني وجود التعارض بينهما فهما متفقان ومتطابقان)[2].

---

[1] مجموع الفتاوى ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، ت ٧٢٨هـ، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط١، ١٤١٦ هـ/ ٩: ٧٢١.

[2] تفسير السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، ت ٤٨٩هـ، تحقيق ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ/ ٥: ٢٣٧.

ثالثاً: محل العقل .

أعطى العلماء رأيهم حسب استنباطهم للنصوص الشرعية في محل العقل .فقال السمعاني:" إن محل العقل هو القلب بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ سورة ق، الآية:٣٧ ." [١] وقيل: "إن العقل محله الدماغ ولا مانع من ذلك فإن القلب هو الذي يبعث على إدراك العقل وإن كان محله خارجا عنه "[٢].

ويقال: " فلان خفيف الدماغ أي: خفيف العقل ." [٣]

ومن هنا يبين السمعاني رحمه الله تعالى، خطأ الناس في اطلاق معنى العقل قائلاً: "ويخطئ الناس في بعض الأحيان في فهم معنى "العقل" ؛ ويظنون أن العقل هو إطلاق الحبل على الغارب للأفكار دون انتظام او مسئولية، ونقول: افهموا أولاً معنى كلمة العقل حتى تعرفوا مهمته " [٤].

وفي ختام الكلام عن تعريف العقل نصل الى حقيقة معلومة، لخصها الدكتور عبد المعطي محمد بيومي قائلاً: " إن العقل هو جوهر

---

(١)فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ت ١٢٥٠هـ، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣ / ٣: ٦٥٨ .

(٢)فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ت ١٢٥٠هـ، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣ / ٣: ٦٥٨ .

(٣) تفسير السمعاني / ٥: ٢٣٧ .

(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، مصر، ط١، ١٩٩١م / ١: ١٩٥٧

الإنسان ومركزه في الدماغ، ونوره في القلب، وبدونه يفقد الانسانُ ميزانه، فهو صفة ينتقل بها الإنسان من العلم بالضرورة إلى العلم بالنظريات انه متوقف على سلامة آلاته التي هي الحواس، وأنه مناط التكليف، ومن ثم فإن الشرائع موجهة إليه في الأساس، ومنوطة به في الأداء، فإذا سقط العقل سقط التكليف "[1].

رابعاً: مكانة العقل في الإسلام

١. مكانة العقل في القرآن الكريم:

القرآن الكريم أولى اهتماما كبيرا لبيان حقيقة العقل ومراتبه وكيفية تأثره وتأثيره، ولكن عبر اهتمامه بالعقل العملي، وهو العقل القابل للتطور والترقي، الذي يؤدي إلى ادراك الحق الواجب اتباعه، وادراك الباطل اللازم اجتنابه، فالعقل في القرآن يمثل الجانب التطبيقي في الوعي الإنساني، وهذا لا يعني إهمال العقل بوصفه ملكةً للتفكير أمام الوهم والخيال، كما لا يعني إهمال المدركات الأولية للعقل، كيف والقرآن من خلال محاجته مع الكفار والمنافقين وجميع البشر انما يرتكز على العقل بوصفه آلة إدراكية عامة يشترك فيها الجميع وتكون حجة على الناس جميعا.

---

[1] مقال بعنوان دور العقل في الخطاب الديني، للدكتور عبد المعطي محمد بيومي منشور على الموقع الرسمي للأزهر الشريف http://elazhar.com/conf_au/13/38.asp .

وهكذا فقد أوجب الله سبحانه وتعالى على عباده ان يفكروا ويتفكروا فقال عز من قائل: ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ سورة النحل، الآية: ٣٦ .

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ سورة المؤمنون، الآية: ٨٠ .

ويستمر القرآن مستعرضا مكانة وأهمية العقل ليثبت أن الإنسان لو لم يمنحه الله العقل، لكان أضل من الحيوان، ولما كان خليفة وسيداً في الأرض.

ويبين الدكتور عبد الله قادري الأهدل في مقال رائع يتحدث فيه عن منزلة العقل قائلاً: " فترى القرآن الكريم يجول بالعقل في السماء-شمسها وقمرها ونجومها وكواكبها ومائها-وفي الأرض-بخيراتها، من زروعها و أشجارها وبحارها وأنهارها وجبالها وسهولها، ويجعل ذلك كله مجالا للعقل ليتفكر فيه ويتذكر ويهتدي ويشكر، ومن شُكْر ذلك استغلالُ هذا الكون في مصالح العباد على أساس هدي الله تعالى. ومن تلك الميادين: فقه نصوص القرآن والسنة، والتعمق في فهمها واستنباط ما تحتاج إليه البشرية منها، لتتقي ربها وتسير في تصرفاتها على منهجه، مع فهم أسراره وحكمه حيث أمكن ذلك، وإلا فالتسليم المطلق لشرع الله تعالى، فإن

التسليم لشرع الله هو عين الفقه والعقل، وعدم التسليم لذلك هو عين الجهل والخطل. "[1]

والقرآن الكريم مليء بما يفتح للعقول أبواب الإدراك ضمن نطاقها الشرعي الصحيح قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ سورة الحج، الآية: ٤٦.

" فما يظهر من هاتين الآيتين، وأمثالهما تبين أن في الإنسان قوى مدركة للأشياء، وأن من هذه القوى: السمع والبصر والقلب؛ أي العقل "[2]

وأنّ المعرفة الإنسانية تعتمد على قوى العقل السليم، أي أنّها اكتسابية.

" كذلك استعملت كلمة القلب والفؤاد بمعنى العقل، وهذا أمر معروف في الجاهلية وفي الإسلام، وقد جرى المفسرون على هذا، في تفسير ما ورد في هذا الاستعمال في القرآن. حتى علماء الكلام والفلاسفة الإسلاميون، والمتصوفة، فسروّا اللفظين كذلك "[3].

---

(١) مقال للدكتور عبد الله قادري الأهدل، عنوان المقال منزلة العقل عند الله وأثره في الحياة، ضمن سلسلة السباق الى العقول. http://www.saaid.net/Doat/ahdal/index8.htm

(٢) الإدراك الحسّي عند ابن سينا، محمد عثمان نجاتي، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦١/ ١٩.

(٣) معارج القدس، محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، ت ٥٠٥هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٥م / ٩٣.

ففي القرآن إذاً توجد معطيات العقل، او ما يسمى بنظرية المعرفة التي اختلف حولها فلاسفة المسلمين أنفسهم، بملاحظة أننا نجد في القرآن الكريم اعتماداً واضحاً في تحصيل المعرفة الحسّية على قوى الإحساس المباشرة.

ولننظر الى معنى تعقلون في قوله تعالى:. ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ سورة البقرة: الآية: ٧٣. قال ابو السعود: أي " لعلكم تعقلون أي لكي تكمل عقولكم، وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها "(١).

وفي ذلك أشار الإسلام إلى ضرورة التفكير، ليس ذلك فحسب، بل ذم بشكل واضح الذين يتبعون ما جاء به آباؤهم الأولون دون تفكير بالعقل والقلب.

فقال عز من قائل: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٧٠. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ سورة الصافات، الآيتان: ٦٩ – ٧٠.

وهكذا نجد أن ديننا الحنيف كرم بني آدم بالعقل حتى يختلف عن سائر المخلوقات، والأهم من ذلك أنه اعطاه الخلافة والسيادة في الأرض .. وما ذلك إلا بالعقل الصحيح الذي يوافق القرآن الكريم.

---

(١)تفسير أبي السعود، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، ت ٩٨٢هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ب.ت / ١: ١١٤.

فله إذاً أن يفكر في ما خلق الله سبحانه وتعالى، ويستكشف الحقائق المادية التي باستطاعته أن يعيها ويفهمها، أما الحقائق الغيبية فما كشفه الله له فهو خير، وما أخفاه الله تعالى عنه فعليه أن يوقف عقله وفكره أمامها، ذلك أنه لن يفهمها، ولن تعود عليه إلا بالإعياء التام عقليا ونفسيا، فما عليه إلا أن يؤمن بالغيب، كي تستقر حياته ويستقيم معاشه ومعاده الموعود، ولا يسأل عنها أطلاقا فليس بإمكانه فهمُها وإدراكُها .

٢. مكانة العقل في السنة النبوية

مضى سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وأصحابه يكلم الناس على قدر استعدادهم العقلي والمعرفي مبينا اهتمامه بالعقل، كما في الحديث: " أُمرنا ان نكلم الناس على قدر عقولهم "[1].

وسواء صح هذا الحديث او ضعف، فإن الغاية من ادراجه في هذا المقام أن دعوته صلى الله عليه وسلم قائمة على احترام عقول الآخرين، وعدم زجها فيما لا تعي، وهذا من باب الدعوة على قدر فهم الناس وعدم تكليفهم ما لا يطيقون.

---

(١) الفردوس بمأثور الخطاب، أبو شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي الهمذاني الملقب إلكيا، ت ٥٠٩ هـ، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦ هـ / ١: ٣٩٨ . وقال الزركشي: " وفي إسناده ضعف " ينظر: التذكرة في الأحاديث المشتهرة، بدر الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الزركشي، ت ٧٩٤ هـ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦ هـ / ١: ١٠٧ .

بل إنه صلى الله عليه وسلم كان يكرر الكلام ثلاث مرات مراعيا فروقات الناس في العقول ودرجات الفهم والوعي التام . وذلك بسبب تفاوت مدارك الناس ووعيهم ومدى استفادة عقولهم من الكلام الذي سيوجه إليهم، لذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم يختار الفرص المثلى لإلقاء خطبه ومواعظه على أساس

سبب الموعظة ووقتها، حتى يضمن فهم الجميع بلا استثناء .

وفي العبادة والصلاة يعلم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ان من يقف خلفه يكون من اهل العقول الراشدة، وليس من الطائشين والمراهقين .

فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: "استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم "(١).

قال الإمام الجزري رحمه الله: "أي ذَوُوا الألباب والعقول، واحدها حِلْم بالكسر وكأنه من الحلم: الأناةِ والتَّثبُّت في الأمور وذلك من شِعار العقُلاء"(٢).

---

(١) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ/ ٥: ٥٤٥ .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، ت ٦٠٦هـ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١: ١٠٣٦.

ويؤكد هذا التفسير الإمام النووي رحمه الله حيث يقول: " وأولو الأحلام هم العقلاء وقيل البالغون والنهي بضم النون العقول فعلى قول من يقول أولو الأحلام العقلاء يكون اللفظان بمعنى فلما اختلف اللفظ عطف أحدهما على الآخر تأكيدا وعلى الثاني معناه البالغون العقلاء"(١).

وما زالت السنة النبوية ترشد الناس الى العقل السليم حتى ذكرت حال الناس يوم القيامة، وتفاضلهم فيما بينهم على أساس العقل الصحيح فعن سيدتنا عَائِشَةَ قَالَتْ " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ بِأَيِّ شَيْءٍ يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا قَالَ بِالْعَقْلِ قُلْتُ فَفِي الآخِرَةِ قَالَ بِالْعَقْلِ فَقَالَتْ عَائِشَةُ إِنَّمَا يُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِهِمْ قَالَ وَهَلْ عَمِلُوا إِلاَّ بِقَدْرِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْعَقْلِ فَبِقَدْرِ مَا أُعْطُوا مِنَ الْعَقْلِ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ بِقَدْرِ مَا عَمِلُوا يُجْزَوْنَ "(٢)

فمن اراد ان ينجو يوم الحساب فما عليه الا استخدام عقله بشكل صحيح، لا يعصي به الله سبحانه وتعالى، ولا يخالف أوامره، ولا يتبع الهوى . أما من استخدم عقله عكس ما أراد الله سبحانه، فلا عقل له، ولا هدى . فهذا إذاً هدي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في تنمية العقل والاستفادة من التفقه في الدين، وافادة الآخرين قدر الامكان .

---

(١) شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، ت ٦٧٦هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ/ ٤: ١٥٥ .

(٢) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، الحارث بن أبي أسامة، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، تحقيق: د. حسين أحمد صالح الباكري، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٣/ ٢: ٨٠٥ .

٣. مكانة العقل عند اهل العلم .

لقد كرم الله سبحانه تعالى العقل، حين جعله مناط التكليف، وفضل به الانسان على جميع الكائنات، وخص العلماء بلب العقل فقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة المائدة، الآية: ١٠٠.

لذلك فأهل العلم يكنون للعقل الصحيح مكانة خاصة ويرفعون من شأنه، فينظرون في ملكوت الله تعالى، ويستحضرون التذكر والاتعاظ وصدق التوجه الى الخالق سبحانه دون ان يضعوا تعارضاً بين كلام الله تعالى وبين ما خلقه .

ثم ان المذاهب الكلامية والفلسفية، والتي أرادت تمجيد العقل، والرفع من شأنه،

حسب قولهم، لم يَصلِوا بحال من الأحوال إلى عشر معشار ما بلغه الإسلام

من تكريمٍ للعقلِ، وتشريفٍ له .

وليس هناك كتاب كالقرآن الكريم اطلق للعقل المجالات وفتح امامه الأبواب ليفكر ويبتكر ويتدبر خلق الله سبحانه وتعالى، وحماه من التخلف والعودة الى الوراء .

" فلم يطلب الإسلام من الإنسان ان يطفئ مصباح عقله، ويعتقد، بل دعاه إلى إعمال ذهنه وتشغيل طاقته العقلية في سبيل وصولها إلى أمور

مقنعة في شؤون حياتها، وقد وجه الإسلام هذه الطاقة بتوجيهات عدة لتصل إلى ذلك، فوجهها إلى التفكر والتدبر في كتاب الله، وفي مخلوقاته، وفي تشريعاته وفي أحوال الأمم الماضية، وما أدت بهم المعاصي إليه، وفي الدنيا ونعيمها الزائل "[1].

ولقد تأمل العلماء قوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾سورة الأنفال، الآية: ٢٥ .

فقال السيوطي: "هي أن يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل "[2].

وهكذا يتحمل الإنسان وبالأخص العلماء المسؤولية الكاملة في التفكير وإعمال العقل من اجل إقامة المعروف والنهي عن المنكر، وما هذه الآية الكريمة الا تهديدا بالعقاب اذا علم ولم يعمل، ولم يصلح، ولو كان فيهم الصالحون .

---

[1] منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد الرومي، مطبعة رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد، السعودية، ط٢، ١٤٠٣هـ / ٣٣ .

[2] الدر المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، ت ٩١١هـ، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٣م / ٤: ٤٧ .

بدليل ما أخرجه البخاري ومسلم عن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: "يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ"(١).

وقد أدى العلماء دورهم الريادي في تعاطي العقل، وتفعيل دوره في شتى المجالات.

ومن مظاهر تكريم الإسلام للعقل رفضه للتقليد الأعمى الذي يؤدي إلى تجميد الأذهان، ليس هذا فحسب وإنما حذر من التعصب إلى أفكار وضعية زائفة أساسها الهوى والخرافة والسذاجة، فأمر العقل بالتعلم وحثه على ذلك كي ينمو بغذاء العلم وبهذه الطريقة يكون الإيمان عن ادراك صحيح وفهم عميق، واقتناع أتم بل أنه سبحانه قرن ذكر أولي العلم بذكره عز وجل وذكر ملائكته " شهد الله " وقوله تعالى "انما يخشى الله من عباده العلماء " وهكذا كان عقل أهل العلم وسيلة لهداية الخلق الى الطريق القويم، وليس لخداعهم وشراء ذممهم وإفساد عقائدهم كما حصل في المذاهب الغربية الباطلة، والديانات المحرفة.

---

(١) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، ت ٢٥٦، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ / ٦: ٢٦٠٩ برقم ٦٧١٦ . ينظر: صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، ت ٢٦١هـ، دار الجيل، بيروت، طبعة مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول، ١٣٣٤هـ/ ٨: ١٦٥ . برقم ٧٤١٦.

العقل عند أئمة أهل البيت (عليهم السلام):

وهم أول من اعتنى بالعقل وعدّوا العقل هو المبدأ لكل حجة ودليل واليه تنتهي طرق العلم والمعرفة بكل شيء وكل حكم، والعقل هو القوة المبدعة التي منحها الله (عز وجل) إلى الإنسان وميزه به على الحيوان، والعاقل في اصطلاح القرآن الكريم وعند أهل العلم هو الذي يضع الشيء في مكانه ويملك إرادة قوية، فيحبس نفسه عما يشين بها ولا يستجيب لهواها ان يك مخالفاً للعقل وحكمه، قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ سورة المؤمنون: ٧١. وسئل الإمام الصادق (عليه السلام)، عن العقل، فقال: ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان، وقال (عليه السلام)العقل لا يقود الى الحرام كما يفعل الشيطان، والله تعالى بشّر اهل العقل والفهم في كتابه الكريم، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ الزمر: الآية ١٧.

وهناك رسالة للإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، في مجال العقل كمصدر معرفي سميت برسالة العقل عند الإمام وهي وصية ثمينة أوصى بها هشام بن الحكم، تؤكد أهمية العقل في الاستدلال للنجاة من عذاب النار[1].

---

[1] معنى العقل عند أهل البيت (عليه السلام)، تقوى القلوب/ الشبكة العنكبوتية.

المبحث الثاني: مرجعية الفكر الاسلامي وخصائصه

المطلب الاول: مرجعية الفكر الإسلامي

أولاً: القرآن الكريم .

يظهر جلياً أن الفكر الإسلامي اعتمد القرآن الكريم مصدرا رسميا استنبط منه طرق الفهم الصحيح، واعتمده دون مناقشة، حيث أن القرآن الكريم دستور إلهي غير قابل لوضعه في دائرة التجارب والاحتمالات .

ولو تأملنا القرآن الكريم لوجدناه يفتح المجال الواسع لحركة العقل الإنساني، ويظهر لنا هذا واضحاً عندما نجد أنه لا يقدّم نصوصاً قاطعةً في كثير من المسائل، بل تأتي تلك النصوص مرنة أو عامة أو ذات مقاصد كليّة.

يقول سامي النشار: "إن البحث المنصف إذا تحرى عن حقائق الحياة الإسلامية خلال التاريخ الطويل، يرى أن مظاهر الفكر الإسلامي المتنوعة كلها انطلقت من الإسلام وجالت في دائرته واصطبغت بصبغته، وأن القضايا الكلية والجزئية التي أثيرت في التاريخ الإسلامي كانت بأصالة مصدريه الأساسيين"(١)

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار، دار المعارف، ط٩، ١٩٩٥م./١: ٣٣-٣٤.

ثانياً: السنة النبوية المطهرة.

لاشك أن السنة النبوية المشرفة ممثلة بأقوال وأفعال وأحوال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فصلت كل ما يحتاجه المسلمون من قضايا اجتماعية ودينية وفكرية، ثم بات فهمها سائغاً للعقول عن طريق علماء الأمة الكبار الذين نقلوا لنا هذا الدين ابتداءا من آل البيت الأطهار عليهم السلام، والصحابة الكرام رضوان الله عليهم، لتتكون صورة الفكر الإسلامي الرائع، الذي منح الإنسانية الجمال، ورسم خطوط الاعتدال والرقي في الفكر والتفكير، وربط جميع المعتقدات عن طريق الحوار البناء، ونشر ثقافة المحبة والتسامح بين الناس أجمعين، وما وصف الفكر الإسلامي بأنه إسلامي إلا لأنه انطلاق من هذين المصدرين الإلهيين. القرآن والسنة.

ثالثاً: العقل هو ثمرة التزام الفكر الاسلامي بمصدريه الرئيسين

إن التزام الفكر الإسلامي بالقرآن الكريم كوحي إلهي ثابت فتح مجال الإبداع أمام العقل ضمن الضوابط الشرعية.

حيث قام على مدار التاريخ ببناء القضايا الكونية والاجتماعية التي أثارها هذان المصدران المعصومان على أساس المرتكزات العقلية التفصيلية والاستنباط منها والتوسع فيها وشرح وجوهها المتنوعة وإثبات أن النص القاطع الوارد في كلا المصدرين موافق للعقل الصحيح. وهو

العقل المعتبر السليم الذي لا يتناقض مع الأسس الشرعية للمرجعية النصية.

ففي مجال العقائد الدينية استخدم الفكر الإسلامي أساليبه العقلية لحل المشكلات الفكرية عن طريق فك البراهين اليقينية القرآنية، ومن ثم الحصول على نتائجها العقلية الصحيحة.

فضلاً عن استخدام القوانين المنطقية من اجل مكافحة الأفكار المبنية على مخالفة العقيدة الإسلامية، حيث لم تغب عن العقل الإسلامي محاولات المخالفين للإيمان رغم مجيئها بفلسفات أجنبية كادت ان تسحب البساط من تحته وخصوصا من أفكار فلسفية والحادية دخلت على البيئة الإسلامية بعد القرن الثاني الهجري.

وأما في مجال التشريع العملي فقد استطاع الفكر الإسلامي منطلقا من مبادئ وقواعد الشريعة الإسلامية أن يواجه أحداث الحياة المتغيرة، فيضع لها من الأنظمة التفصيلية والأحكام الاجتهادية الكثيرة والحلول الناجعة المبدعة التي أقامت الحياة الحضارية الإسلامية في تفاصيلها الدقيقة، فأنتجت بذلك رقيا شاملا في المجتمع الإسلامي أدى إلى رفع مستوى الإنسان المسلم المادي والمعنوي..

المطلب الثاني: خصائص الفكر الاسلامي

مدخل:

عند تعريف الفكر الإسلامي استقرائياً نعلم بأنه: كل ما أنتجه العقل المسلم من مفاهيم مرتبطة بعملية التحليل والاستدلال من المرجعية الثابتة للمسلمين (الكتاب والسنة)، في المعارف الكونية التي تتصل بالكون وخالقه والمجتمع والإنسان ومحاولة ذلك العقل نقل الوحي من حالة الكمون والسكون الى الحركة والتغيير والبناء[1]، وصدر هذا الفكر من العلماء والدارسين في فروع العلوم الإسلامية، وبناء على هذا التعريف يدخل في مجال الفكر الإسلامي كل العلوم الإسلامية ابتداء من التفسير وعلوم الحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام والعقائد والدراسات اللغوية التي تخدم وترتبط بالمصادر الإسلامية المعرفية.

ومع هذا الشمول للفكر الإسلامي إلا ان الاصطلاح استقر على ارتباط علم الكلام والعقائد وما تعلق بهما بالفكر الإسلامي، وأصبح مصطلح الفكر الإسلامي يرتبط بالدراسات التي تعنى بالعقيدة والدفاع عنها، ودراسة الأديان والفلسفة وعلم الكلام والدراسات القرآنية المتخصصة بالمصطلحات والمفاهيم المرتبطة بالحركة الفكرية، وكذلك ارتبط بالفكر الإسلامي دراسات الفرق والمدارس الكلامية والملل

---

(١) ينظر: قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر، د. محسن عبد الحميد، ط١، ٢٠٠١م، بغداد.

والنحل والتاريخ الذي يؤرخ لنشوء الأفكار والفرق والمذاهب، ويرتبط بالفكر الإسلامي كذلك تطور العلوم والدراسات المعاصرة والمفاهيم والأفكار السائدة في العصر الحديث وما تثيره من تحديات ومشكلات فكرية تواجه المفاهيم الدينية والإسلام على الخصوص، وعلى هذا الأساس بالإمكان تقسيم الفكر الإسلامي على مرحلتين عن طريق متابعة تاريخ تطور الفكر الإسلامي واستقرار المصطلحات وتداول العلماء المسلمين لها.

المرحلة الأولى: الفكر الإسلامي الكلامي، ويشمل مرحلة التأسيس للمفاهيم والأفكار المرتبطة بالعقيدة وعلم الكلام، ونشأة الفرق والمدارس الكلامية.

المرحلة الثانية: الفكر الإسلامي المعاصر وهو الفكر الإسلامي ما بعد الكلامي إلى الوقت الحاضر، ويشمل التحديات المعاصرة التي واجهت الفكر الإسلامي، وردود العلماء المسلمين عليها، مثل الإسلام السياسي والعلمانية والحداثة والداروينية وغيرها.

ولكل مرحلة من المراحل أعلاه شخصيات ظهرت ولمع أسمها في مجال الفكر سواء العلوم الشرعية الإسلامية أم العلوم الفلسفية والطبيعية، وأصبحت دراسة هذه الشخصيات سيرها وآثارها تدخل في مجال الفكر الإسلامي ودراسته.

خصائص الفكر الإسلامي: بناء على التعريف بالإمكان التعرف على أهم خصائص الفكر الإسلامي وهي:

١- فهو فكر يرتبط باصالته الشرعية، فكر يستمد مبررات حركته وشرعيته من إثبات الحقائق الإيمانية والدفاع عنها، فهو فكر يرتبط بالإيمان بالله تعالى واتباع الرسول ﷺ، وبناء على ذلك فالفكر الإسلامي هويته إيمانية توحيدية، وتحقق هذه الغاية والمقصد الأسمى عن طريق اتباع الرسول ﷺ في إقرار العقائد والتعامل مع المخالفين وعن طريق النظر العقلي الذي لا يتعارض مع الدليل النقلي، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على إعمال العقل للوصول إلى الإيمان بالله ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1]، وفيها قال ﷺ: "ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر بها"[2]، (وهناك أكثر من ٩٠٪ من آيات القرآن الكريم تدعو إلى التفكر وتوظيف النظر للوصول إلى الإيمان بالله تعالى، فالكون هو الكتاب المنظور، والقرآن هو الكتاب

---

[1] سورة آل عمران: الآيتان (١٩٠-١٩١).

[2] البخاري ومسلم: ١/ ٥٣٠ بمعناها، وينظر: فتح الباري: ٨/ ٢٣٧.

المقروء)[1]، ووظيفة المفكر المسلم أن يربط بين قراءتين قراءة الخبر في القرآن الكريم، وقراءة نتائج النظر في المختبر الكون، ومنهج القرآن الكريم أن يربط بين الآيات الكونية، وهي آيات التكوين وبين الآيات التكليفية التي نزلت في القرآن الكريم ليتحمل المتلقي مسؤولية التكليف وفي أكثر من آية نجد هذا الربط منها قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾[2].

٢ـ الفكر الإسلامي فكر بشري فهو قابل للخطأ وليس معصوماً وهو قابل للتغيير بناء على تطور العلوم وانكشاف الحقائق، وكذلك قابل للتعديل بما يناسب ما استجد من علوم، وكما هو معلوم بأن بشرية الفكر الإسلامي تؤدي إلى نسبية الحقائق التي يتبناها هذا الفكر وإن الإدعاء بأن مذهباً معيناً يمتلك الحقائق المطلقة أو ان عالماً معيناً معصوم من الخطأ يعبر عن جهل بحقيقة الدين وتداخل بين المقدس الإلهي وغير المقدس البشري، وبناء على ذلك تحدث الكثير من الخلافات التي تؤدي إلى استنزاف الطاقات والجهود بسبب هذا التداخل الذي يقود إلى دعاوى امتلاك الصواب المطلق أو ما يسمى بالأرثوذكسية الدينية التي ظهرت في

---

(١) ينظر: حول النظام المعرفي في القرآن الكريم، د. محمود عايد الرشدان، مجلة إسلامية المعرفة، السنة الثانية، العدد (١٠)/ ١٩٩٧م.

(٢) سورة الغاشية: الآيات (١٧. ٢١).

الأديان السابقة اليهودية والنصرانية، ثم ظهرت في البيئة الإسلامية وهي حالة سلبية تؤدي إلى تمحور حول أفكار مركزية لا تقبل الحوار وتقصي الآخر وتستبيح دمه وتلغي إنسانيته، وتاريخ الفكر يؤكد لنا ان هذه السمة وهي الاختلاف كانت ملازمة للفكر البشري، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[1]، فالخلاف حقيقة قائمة بين البشر لاختلاف عقولهم وامزجتهم وقدراتهم الفكرية والوظيفة الأساسية للفكر الإسلامي هي البحث عن المشتركات، والاعتراف بالآخر والتعايش معه من أجل بناء حضاري قائم على التعددية والاختلاف مع الاحتفاظ بالقيمة الإنسانية والتسامح، وإن بقاء النصارى واليهود وأهل الأديان الأخرى في بلاد المسلمين دليل على إجماع علماء الإسلام على قبول التعايش بين الأديان المختلفة وحرية اختيار الدين، ورفض الإكراه، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾[2].

٣- الفكر الإسلامي فكر مرن: فهو يستمد مرونته من كفاية القرآن الكريم والسنة المطهرة لتوليد معاني ومفاهيم تواكب متغيرات الحياة وتطوراتها، فلا يضيق هذا الفكر بالمستجدات ولا يجمد على قوالب فكرية

---

[1] سورة هود: الآيتان (١١٨-١١٩).

[2] سورة البقرة: من الآية (٢٥٦).

عفى عليها الزمن، وبناء على ذلك فإن مجال الفكر الإسلامي الربط بين الأصالة ومرجعية المسلمين وثوابت الدين وبين المعاصرة، كما يذكر مالك بن نبي بأن هناك (أفكار ميتة وأفكار قاتلة) الأفكار الميتة قالها أشخاص قبل مئات السنين وماتوا فلم تعد تنفع الواقع، لأن مشكلات الواقع تتبدل، فإن المسائل التي واجهت علماء الكلام في مرحلة التأسيس لم تعد قائمة في العصر الحالي، واستجدت مسائل معاصرة مثل المذاهب المادية والفلسفة الوضعية والاتجاهات الفكرية المعاصرة التي تناقش مسائل الوجود والعدم والزمان والمكان والروح والمادة، ولم تعد مسائل علاقة الأسماء والصفات بالذات وقضايا الرؤية وخلق الأفعال من مسائل الفكر المعاصر ومع ان هذه الأفكار لم تعد تعبر عن حاجة المجتمع المعاصر، لكن على الباحث في الفكر الإسلامي أن يدرسها ويستوعبها لأنها تزيد من رصيده العلمي وثقافته الإسلامية وتمكنه من معرفة نشوء الأفكار وتأصيل الفكر والمعاصرة تفرض على المفكر المعاصر أن يتداول المفاهيم التي تصدر من مفكري عصره، ويرد عليها أو يوظف العلوم المعاصرة مثل الفيزياء والكيمياء وعلوم الحياة وغيرها من العلوم المعاصرة، كل هذه العلوم يوظفها لنصرة الحقائق الدينية عن طريق الربط بين العلوم المعاصرة ودلالات النصوص الدينية لتعزيز الإيمان بالله والدين، وإن خطاب العصر يحتاجه المفكر المسلم للتواصل مع الواقع

وبيان حقائق الدين بلغة العصر، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾[1].

أما الأفكار القاتلة فهي الأفكار التي تنبت في بيئة غير إسلامية، وتصدر ضمن مشكلات غير إسلامية ويُعمل على استنساخ هذه الأفكار وتستورد هذه الأفكار، لتعمل في البيئة الإسلامية فتكون النتائج سلبية وتولد صراعاً في الفكر الإسلامي يستنزف طاقات علماء المسلمين، فالديمقراطية والقومية والعلمانية أفكار أنتجها الغرب لمعالجة مشاكله لا يمكن أن تعمل في البيئة الإسلامية ما لم يعاد تكييفها مع الأصول الإسلامية.

٤. الفكر الإسلامي ارتبط بظروف إنتاجه: ولما كان هذا الفكر يستمد شرعيته من المرجعية الإسلامية (الكتاب والسنة) فقد كانت ظروف إنتاجه دافعاً لعلماء المسلمين إلى البحث والاستدلال في النصوص لإعطاء التصورات والمفاهيم التي تأثرت بالثقافة السائدة، ويتم تكييف الدلالة بموجب الثقافة السائدة مع التشبث بالنص ودلالته، فالمعتزلة عندما أنكروا الكثير من المسائل؛ لأنها بحسب منهجهم تتعارض مع العقل والمنطق، وإن إقرارها يؤدي إلى القول بأن الخالق يشبه المخلوقين فأنكروا رؤية الله يوم القيامة وأولوا النصوص التي تثبت الرؤية على انها

---

[1] سورة إبراهيم: من الآية (٤).

رؤية قلبية وليست بالعين المجردة؛ لأن الرؤية بالعين توجب أن يكون المرئي في جهة وجسماً، وهذا محال على الله.

وأجاب الأشاعرة بأن مصحح الرؤية الوجود وليس الجسمية كما تدعون والأصل ان كل شيء موجود ممكن أن يرى، وان قدرة الله قد تمكن من رؤية الروائح والخيالات العقلية مثل جبل من ذهب، وإن الله تعالى يخلق في الإنسان القدرة على رؤيته يوم القيامة؛ لأن الله موجود فليست الجسمية ولا الحدوث ولا الإمكان هي مصححات للرؤية لأن الجسم حادث والحادث مسبوق بعدم والإمكان مسلوب الضرورة من أحد طرفيه؛ لأن الممكن عندما يكون ممكناً لم يكن وجوده ضرورياً أو واجباً ولا عدمه ضروري أيضاً، وكذلك خلاف المتكلمين حول حقيقة الكلام، فمنهم قال بأن كلام الله حادث، ومنهم قال انه قديم، ومنهم من فصل بالقول في الكلام النفسي قديم والكلام المقروء في القرآن الكريم حادث وغيرها من الآراء التي صدرت من العلماء بسبب شبهات كانت قائمة في عصرهم وما آثاره أهل الأديان من شبهات حول تعدد القدماء وما ذكره يوحنا الدمشقي في أحد كتبه من شبهة يعلم بها النصارى لمجادلة المسلمين (إذا قال لك المسلم ما تقول في المسيح فقل له: إنه كلمة الله ثم اسأل المسلم: بماذا سمى القرآن المسيح، سيجيب المسلم: (كلمة الله

ألقاها إلى مريم وروح منه، فان أجاب بذلك اسأله: هل كلمة الله وروحه مخلوقة أم غير مخلوقة، فإن قال مخلوقة فهي كفر عندهم)[1].

٥. الفكر الإسلامي فكر تكاملي وليس فكراً تفاضلياً: والفكر التكاملي يؤكد على أن نسبية الحقائق المكتسبة عند العقل الإنساني صفة مرتبطة بقصور العقل البشري عن إدراك الحقائق المطلقة، ولذلك ورد في الأثر (العجز عن درك الإدراك ادراك)[2]، وهذا تقرير دقيق لطبيعة العقل البشري بأنه عقل محدود وعاجز عن ادراك المطلق، ويترتب على هذا التقرير ان الصواب في الفكر البشري مرتبط بصدوره عن عقل جماعي، وكلما زاد اتفاق عدد من الباحثين على مفهوم معين أبعده هذا الاتفاق عن الخطأ، وكلما كان الفكر أحادياً كان أقرب إلى الخطأ، وهذه الحالة تؤدي إلى تفعيل العقل المؤسسي الذي يحقق استيعاباً شاملاً للمفاهيم التي تخضع للدرس، وكلما زادت التخصصات الدقيقة كلما كانت النتائج أكثر دقة، وهذا المبدأ يرتبط مع فكرة الإجماع التي يقررها علماء أصول الفقه على أساس ان الإجماع إذا تحقق اكتسب الحكم درجة تقترب من النص عند بعض المذاهب، والفكر التكاملي يحقق جوانب عدة منها التي ذكرناها ومنها كذلك انه ينمي روح التعاون والتواضع في البحث العلمي في حين ان الفكر التفاضلي يعمق روح الاستعلاء والتنافس السلبي، وبالتالي تزداد

---

[1] ينظر: في علم الكلام، د. أحمد محمود صبحي، جزء المعتزلة: ص٣١ .

[2] ورد هذا الأثر عن أبي بكر (رضي الله عنه)، وقيل عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

احتمالات الخطأ في النتائج والقرارات، وكان أول من مارس الفكر التفاضلي هو إبليس عليه لعنة الله عندما ذكر القرآن الكريم مقولته المعروفة: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[1]، وكذلك مارسه فرعون في مقولة: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾[2].

٦ـ الفكر الإسلامي فكر علمي: يدعو إلى استعمال العقل ويربط بين الأسباب والمسببات ويرفض التسليم إلى الأساطير والطوباويات والشعوذة والخرافة، ويخضع في حركته إلى الجمع بين العلم والإيمان، ويطالب على الدليل والبرهان ويفحص ويحلل وينقد ويمارس التحليل الرياضي، والنظر في الأسباب والمسببات ولا يستسلم أمام التفسيرات الغيبية مالم ترتبط بالنصوص القطعية والأدلة الشرعية والتي ترتبط بحقائق الدين ومبادئه، وعلى هذا الأساس لا يمكن اعتماد الرؤى والمنامات في معرفة الأحكام الشرعية ولكن يمكن الاستئناس بها إذا توافرت فيها الشروط الموضوعية والتحقق من مصداقيتها.

أما الكشف والإلهام فأكثر أهل العلم لا يعولون عليها لمعرفة الحقائق، وأكثر من يتعامل بالكشف والإلهام هم أهل العرفان والتصوف والتجربة الصوفية تجربة روحية خاصة لا يمكن تعميمها أو نقلها إلى

---

(١) سورة الأعراف: من الآية (١٢).

(٢) سورة الزخرف: الآية (٥٢).

الآخرين؛ لأنها ترتبط بالذوق كما يذكر محمد إقبال في كتابه تجديد التفكير الديني.

ويتلخص المنهج العلمي للبحث عند علماء المسلمين في قاعدة جليلة كبرى لم يعرف مثلها عند غيرهم وهي قولهم: إن كنت ناقلاً فالصحة أو مدعياً فالدليل)[1]، بمعنى ان الأخبار المعتمدة في تثبيت الحقائق هي الأخبار المسندة والموثقة بصحة السند، أما المفاهيم والأفكار المعتمدة لابد أن تدعم بالأدلة والبراهين، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2]، وذم القرآن الكريم أتباع الأهواء والظن، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[4].

---

(1) البوطي، د. محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية: ص٣١ .

(2) سورة البقرة: من الآية (١١١) .

(3) سورة الإسراء: الآية (٣٦) .

(4) سورة يونس: الآية (٣٦) .

الفصل الثاني

تأصيل الاختلاف في الفكر الإسلامي

والعوامل المؤثرة

في صياغة الفكر الإسلامي

الفصل الثاني

تأصيل الاختلاف في الفكر الإسلامي والعوامل المؤثرة في صياغة الفكر الإسلامي

المبحث الاول: الخلاف وأثره في صياغة الفكر الاسلامي .

لا بد أن يعلم دارس الفكر أن الاختلاف سمة عامة عند البشر لاختلاف العقول في طبيعتها وقد ساعدت عدة عوامل عقلية على صياغة الفكر الإسلامي أدت إلى تطوره ووصوله إلى الحُلة التي تزيَّن بها الآن حيث كان لنشوء المدارس العقلية الأثر الكبير في بلورت الأفكار الإسلامية وبلوغها المجد الفكري والحضاري، ولولا الخلاف الفكري لتوقف تطور الفكر الإسلامي وتحجر.

ومن هنا كان من المهم ان نذكر تلك المدارس العقلية بكل حيادية لنفهم سبب نشوئها والنتائج التي توصلت اليها، وهذه المدارس عبرت تعبيراً دقيقاً لخاصية الفكر الإسلامي البشري لذلك كانت الأحداث التي أدت إلى ظهور المدارس الإسلامية وحركت الفكر وهي نتيجة حتمية لفهم النصوص ودلالتها، وعلى هذا الأساس ترددت مقولة أمير المؤمنين (عليه السلام) المشهورة: بأن القرآن لا ينطق بين دفتي المصحف وإنما

تنطقه الرجال)[1]، وهو بذلك يقرر بأن دلالة النصوص ليست هي النصوص نفسها، وبناء على ذلك يتقرر بأن الخلاف حاصل ولا يمكن تجاوزه حتى بين الفرقة الواحدة أو العائلة الواحدة؛ لأن أفهام البشر تتفاوت من إنسان إلى آخر، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[2]، وهكذا يقرر القرآن بأن الخلاف أمر طبيعي وان تطابق العقول في المجال وعلى العقلاء التعايش والتعاون فيما اتفق عليه، والاعتذار عما اختلف فيه، أما استخدام العنف والقوة لفرض الآراء كما فعلت الخوارج فهو الأمر الذي يجب الابتعاد عنه، وكل ما يصدر عن الخلاف من تعصب وكراهية وتبرير للعنف واستباحة الآخر فهو من الخلاف المذموم والمحرم.

وفي تاريخ الفكر الإسلامي ظهرت حركات سياسية وعقدية أثرت في مسار الفكر، وصياغته.

نتحدث فيما يأتي عن أهم هذه الحركات:

---

(١) من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) في الخوارج لما انكروا تحكيم الرجال قال لهم: إنّا لم نحكم الرجال وإنما حكّمنا القرآن، هذا القرآن إنما هو خط مسطور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولابد له من ترجمان) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٨: ص١٠٤.

(٢) سورة هود: من الآية (١١٨).

المطلب الأول: الخوارج.

أولاً: التعريف بالخوارج.

هم مجموعة من البغاة، خرجوا من غير وجه حق، خرجوا على سيدنا الإمام علي عليه السلام، الذي كان على الحق، ومن خالفه هلك وضل وأضل.

قال الشهرستاني: "كل من خرج عن الإمام الحق، الذي اتفقت الجماعة عليه، يسمى خارجيا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان" (١)

ادعى دعوى باطلة ظالمة مفادها انهم يريدون إقامة الدين، وأنهم خرجوا من اجل إقامة الدين، ولم يأبهوا بما حدث من الانقسام الذي مزق وحدة المسلمين، وجرهم إلى سفك دماء المخالفين، ومع ذلك جاهزوا بدعوتهم الظالمة مدعين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي نفس الوقت استخدموا سلاح الإرهاب الفكري من قتل وترويع وتكفير مخالفيهم من المسلمين حتى صارت سمتهم الرئيسية القتل وسفك الدماء.

---

(١) الملل والنحل، محمد عبد الكريم الشهرستاني أبو الفتح، تحقيق: احمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤١٣هـ./١: ١١٣.

ثانياً: أصل نشأة الخوارج .

بداية نشأة الخوارج يعود الى زمن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وذلك عندما طعن عبد الله ذو الخويصرة التميمي، بقسمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إذ قال: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، وفي رواية قال: " اعدل يا رسول الله فقال له ويلك إن لم اعدل فمن يعدل "(١)

وفيهم قال عليه الصلاة والسلام: " إن مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ القرآن لاَ يُجاوزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإسلام مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإسلام، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأوثَان، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ " (٢)

"فهذا أول خارجي خرج في الإسلام، وآفته أنه رضي برأي نفسه، ولو وقف لعلم أنه لا رأي فوق رأي رسول الله _ صلى الله عليه وسلم . وأتباع هذا الرجل، هم الذين قاتلوا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه "(٣).

---

(١) صحيح البخاري / ٣:١١٢ برقم ٢٥٠٥.

(٢) صحيح البخاري / ٣:١٢١٩ برقم ٣١٦٦، ومسلم / ٣: ١١٠ برقم ٢٤٩٩.

(٣) تلبيس إبليس، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، ت ٥٩٧هـ، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ./ ٨٢.

ثالثاً: فرقهم وأسماؤهم وسبب تسميتهم بتلك الأسماء.

اختلفت الخوارج حتى صارت عشرين فرقة " وهذه أسماؤها المحكمة الأولى، والأزارقة ثم النجدات، ثم الصفرية، ثم العجاردة، وقد افترقت العجاردة، فيما بينها فرقا كثيرة منها الخازمية، والشعيبية، والمعلومية، والمجهولية، والمعبدية، والرشيدية، والمكرمية والحمزية، والإبراهيمية، والواقفة، وافترقت الإباضية، منها فرقا حفصية، وحارثية ويزيدية، وأصحاب طاعة لا يراد الله بها، واليزيدية منهم أتباع ابن يزيد بن أنيس ليست من فرق الإسلام، لقولها بأن شريعة الإسلام تنسخ في آخر الزمان، بنبي يبعث من العجم، وكذلك في جملة العجاردة، فرقة يقال لها الميمونة، ليست من فرق الإسلام؛ لأنها أباحت نكاح بنات البنات، وبنات البنين، كما أباحته المجوس "[1].

وكبار فرق الخوارج ستة: " الأزارقة والنجدات والعجاردة والثعلبة والإباضية والصفرية والباقون فروعهم "[2].

" وللخوارج ألقاب، فمن ألقابهم الوصف لهم بأنهم خوارج، ومن ألقابهم الشراة والحرورية، ومن ألقابهم المارقة، ومن ألقابهم المحكمة، وهم

---

[1] الملل والنحل /١: ١١٣ .

[2] الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور، ت٤٢٩هـ، دار الآفاق الجديدة – بيروت ط٢، ١٩٧٧. /١: ١٨ .

يرضون بهذه الألقاب كلها، إلا بالمارقة، فأنهم ينكرون أن يكونوا مارقة من الدين كما يمرق السهم من الرمية، والسبب الذي له سموا خوارج، خروجهم على سيدنا علي رضي الله تعالى عنه. والذي له سموا محكمة، إنكارهم الحكمين، وقولهم: لا حكم إلا لله، والذي سموا له حرورية، نزولهم بحروراء في أول أمرهم، والذي له سموا شراة قولهم: شرينا أنفسنا في طاعة الله أي بعناها بالجنة "[1].

رابعاً: عقائد الخوارج.

" لم يكن للخوارج دورٌ كبير في المسائل الكلامية والجانب النظري، وذلك لأن نشأة الخوارج كانت نتيجة للأحداث السياسية، فتوجهوا إلى المقاومة، والحروب، والثورة على السلطة القائمة، والمعارك التي قامت بينهم وبين مخالفيهم، لذا قل عندهم الجانب النظري، مما جعل دورهم في المسائل الكلامية قليلا، وإن هذه المسائل رغم قلتها، إلا إنها تمثل أهم المباحث الكلامية، كمعرفة الله سبحانه وتعالى ورسله وشرعه وقد جعلت

---

[1] مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، ت ٣٢٤هـ، عنى بتصحيحه : هلموت ريتر، دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن، ألمانيا، ط٣، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م. /١: ١٢٧-١٢٨.

فرقة النجدات منهم معرفة هذه الأمور أمراً واجباً وضرورياً ولا يعذر فيه أحد وغير ذلك من المسائل العقائدية الأخرى."[1].

وكانت حركة الخوارج عاملاً مهما في ظهور الخلاف حول مرتكب الكبيرة وبالتالي ظهور الفرق وأساليب الخوارج في التعامل مع قضايا الفكر والعقيدة عادة ما تأخذ مسار الصدام والصراع والمواجهة وكانوا ضيقي الفكر ولا يلجأون إلى الحوار وإنما إلى القتال فخاضوا في سبيل فكرهم المعارك الدامية وأسسوا لمنهج العنف وثقافة السيف في الفكر الإسلامي، والفكر الخارجي يعاد إنتاجه إذا ضعف العلم والإيمان وساد الجهل والتعصب.

[1] مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري / ١: ٩٠.

المطلب الثاني: المعتزلة .

أولاً: التعريف بالمعتزلة .

أُطلِقَ اسم المعتزلة على فرقة ظهرت في الإسلام في القرن الثاني الهجري ما بين سنة ه١٠٥ وسنة ١١٠هـ، بزعامة رجل يسمي واصل بن عطاء الغزال .

ثانياً: نشأتهم .

" نشأت هذه الطائفة متأثرة بشتى الاتجاهات الموجودة في ذلك العصر، وقد أصبحت المعتزلة فرقة كبيرة تفرعت عن الجهمية في معظم الآراء، ثم انتشرت في أكثر بلدان المسلمين انتشاراً واسعاً "(١)

كان أول ظهورهم رداً على مسائل في العقيدة أيام الحسن البصري رحمه الله .

حيث جرى: خلاف واصل بن عطاء الغزال في القدر وفي القول بالمنزلة بين المنزلتين فيما أحدثه من البدعة فطردهم الأمام الحسن البصري رحمه الله تعالى . من مجلسه فاعتزلوه بأتباعهم جانبا من المسجد، فسموا معتزلة لاعتزالهم مجالس المسلمين وبعقائدهم الفاسدة التي يعتقدونها(٢).

---

(١) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، غالب بن علي العواجي، المكتبة العصرية الذهبية ؛ ط١، ١٤٢٢ – ٢٠٠١ . /٣:١١٦٣ .

(٢) ينظر: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، أبو المظفر الأسفراييني، تحقيق: كمال الحوت، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٣م ./١: ٢١ .

ومن أسمائهم التي اشتهروا بها "أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية، والعدلية، وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركا، وقالوا: لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى" (١).

ثالثاً: فرق المعتزلة

ذكر أبو طاهر البغدادي فرق المعتزلة في كتابه الفرق بين الفرق قائلاً: " إن الْمُعْتَزِلَة افْتَرَقت فِيمَا بَينهَا إلى اثنين وعشْرين فرقة كل فرقة مِنْهَا تكفر سائرها وَهن الواصلية والعمرية والهذيلية، والنظامية والاسوارية والمعمرية، والإسكافية والجعفرية والبشرية، والمراوية والهاشمية والتمامية والجاحظية، والحايطية، والحمارية والخياطية، وأصحاب صَالح قبَّة، والمويسية والشحامية والكعبية، والجبائية والبهشمية المنسوبة إلى أَبى هَاشم بن الجبائى فَهَذِهِ ثِنْتَانِ وَعِشْرُونَ " (٢)

رابعاً: دور المعتزلة في صياغة الفكر الإسلامي .

برغم تزمت المعتزلة العقلي، فقد ظهر دورهم واضحاً في الدفاع عن عقائد الدين أمام غزو الفلسفة اليونانية والأفكار الإغريقية، لذلك

---

(١) الملل والنحل، الشهرستاني / ١: ٤٣ .

(٢) الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية / ٩٣ .

نجدهم وقفوا أمام هؤلاء الغزاة موقفاً عقلانياً لنصر الدين وقمع الأفكار الشاذة .

و" على الرغم من المواجهة فقد أدت دورها، وحطمت آراء وأفكار متفلسفة، تلك الديانات والفلسفات، واستطاعت أن تنقذ العقائد الإسلامية من الهدم والانحرافات، إلا أنها لم تستطع أن تتفادى ردود الفعل في حومة الصراع الفكري العنيف، فوقعت في أخطاء منهجية، وموضوعية، وأسلوبية "[1].

ومن الأخطاء التي وقع فيها المعتزلة وكان سبب تقهقرها بعدما دامت لهم السيادة أكثر من قرن هي:

١. " غلو المعتزلة وإسرافهم في الاستدلال العقلي.

٢. اتخاذهم السلطة وسيلة لفرض آراءهم الدينية ووجهات نظرهم الفكري.

٣. لجوؤهم إلى الاضطهاد لمخالفيهم في المعتقد وخصوصا أهل السنة"[2].

---

[1] الفكر الإسلامي وتجديده / ٢٤.

[2] أصول الدين الإسلامي / ٥.

المطلب الثالث: الشيعة ـ الامامية ـ

حصل في الساحة الإسلامية الكثير من الأمور التي غيرت مجرى الحياة التي كان عليها عهد سيدنا محمد صلى الله عليه آله وصحبه وسلم . ومن أهمها قضية الخلافة والحكم ومن الذي يستحقها من المسلمين .

فكانت نتيجة هذا الأمر ان يكون آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في معزل عن إدارة الحكم .

ولاشك أن آل بيت الأطهار هم الأولى من غيرهم في قيادة الأمة الإسلامية، لذلك ظهر انصار الإمام علي عليه السلام الذين رفعوا مظلومية آل البيت على مر التاريخ وهم الشيعة، أي شيعة النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وسيدنا علي بن ابي طالب، وآلهم الكرام عليهم السلام جميعا .

أولاً: تعريف الشيعة: يطلق لفظ الشيعة لغة على " الصحبِ والأتباع، ويُطلق في عرف الفقهاء، والمتكلمين من الخلف، والسلف، على أتباع سيدنا علي عليه السلام "[1]

أما اصطلاحا: فهم: " الذين شايعوا سيدنا علياً عليه السلام على الخصوص وقالوا بإمامته، وخلافته نصاً ووصيةً، إما جلياً، وإما خفياً، واعتقدوا إن الإمامة لا تخرج من أولاده، وان خرجت فبظلم يكون من غير، وقالوا: ليست الإمامة قضيةً مصلحية تناط باختيار العامة، وينتصب الإمام

---

[1] مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، دار القلم، بيروت ط٥، ١٩٨٤/١: ١٦٩ .

بنصبهم، بل هي قضية أصولية وهي ركن الدين لا يجوز للرسل ـ عليهم الصلاة وسلام. إغفاله، وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، يجمعهم القول بوجوب التعيين، والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبا، عن الكبائر، والصغائر، والقول بالتولي، والتبرؤ، قولا، وفعلا "[1].

ولهم على مدى التاريخ الإسلامي: حكومات، وعلماء، وكتّاب، وشعراء، وفلاسفة، ومفكرون، ومدارس، ومؤلفات، ومكتبات، وخطباء ومرشدون، وهم يعتنون بالقرآن الحكيم اعتناءً بالغاً: دراسة، وتجويدا، وتفسيرا، وحفظا، وعملا، وتمسّكا، ولهم مدارس خاصة لحفظ القرآن الحكيم.

ثانياً: أصول الدين عند الشيعة

اتفق جمهور الشيعة الإمامية الاثني عشرية على أن أصول الدين خمسة هي: "١- التوحيد ٢- العدل ٣-النبوة ٤-الإمامة ٥-المعاد"[2].

وهم يعتقدون أن مصادر الفقه الإسلامي أربعة: الكتاب والسنة والإجماع والعقل، ولا يجوز سنّ قوانين تخالف هذه المصادر.

يجمعهم القول " بوجوب التعيين والتنصيص على الإمام، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبا عن الصغائر والكبائر، والقول بالتولي والتبري قولا وفعلا وعقدا إلا في حال التقية، ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك "[3].

---

(١) الملل والنحل /١: ١٤٥ .

(٢) أصول الدين / ٦٠ .

(٣) الملل والنحل / ١: ٩٣ .

ثالثاً: ابرز ادلة الشيعة " حديث الغدير"

ومجمل القصة: أن الرسول صلى الله عليه وآله لما رجع من حجة الوداع، وصل إلى موضع يقال له "غدير خُمّ" فأوقف الناس عن المسير، وصعد المنبر في حرّ الظهيرة وخطب خطبة طويلة بمحضر أكثر من مائة ألف شخص، وأوصى بالتمسك بالإمام علي وآل البيت الأطهار عليهم السلام.

حيث روى ابن حبان في صحيحه أن سيدنا علياً عليه السلام، قال: " أَنْشُدُ اللَّهَ كُلَّ امْرِئٍ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ لَمَّا قَامَ، فَقَامَ أُنَاسٌ فَشَهِدُوا أَنَّهُمْ سَمِعُوهُ يَقُولُ: "أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوْلَى النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟ " قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَإِنَّ هَذَا مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ " (١).

وذكر الحاكم النيسابوري في المستدرك في سياق هذه القصة قول سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: " إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ، كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَعِتْرَتِي، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا، فَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ " (٢).

---

(١) صحيح ابن حبان / ١٥: ٣٧٦.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم / ٣: ١١٨.

رابعاً: دور الشيعة في صياغة الفكر الاسلامي .

يكمن دور الشيعة في الالتزام التام بموالاة آل بيت النبي عليهم السلام منطلقين من ادلة ثابتة عند جميع المسلمين من سنة وشيعة، ذلك أن وجود هكذا فكر يؤدي الى توازن عملي وأخلاقي بين طوائف المسلمين، فالمسلمون جميعاً يتفقون على أن آل بيت الرسول عليهم السلام هم وصية النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين بعد القرآن الكريم، فمن تمسك بهما فقد اهتدى ومن خالفهما فقد ضل وأضل . أما من الناحية السياسية فقد كان لآل البيت وأنصارهم الاثر الكبير في الوقوف امام الظالمين في كل زمان ومكان .

قال السيد منذر الحكيم: " لقد كان للأئمة عليهم السلام نشاط مستمر تجاه الحكم القائم والزعامات المنحرفة وقد تمثل في إيقاف الحاكم عن المزيد من الانحراف بالتوجيه الكلامي تارة أو بالثورة المسلحة ضده تارة اخري حينما كان يشكل انحرافه خطراً ماحقاً وإن كان يكلفهم ذلك حياتهم، أو عن طريق إيجاد المعارضة المستمرة ودعمها بشكل وآخر مرة ثالثة من أجل زعزعة القيادة المنحرفة بالرغم من دعمهم للدولة الإسلامية بشكل غير مباشر حينما كانت تواجه خطراً ماحقاً أمام الكيانات المخالفة، وكان للأئمة عليهم السلام نشاط مستمر في مجال تربية الأمة عقائدياً وأخلاقياً وسياسياً وذلك من خلال: تربية العلماء الصلحاء

والكوادر العلمية والشخصيات النموذجية التي تقوم بمهمة نشر الوعي والفكر الإسلامي وتصحيح الأخطاء في فهم الرسالة والشريعة، ومواجهة التيارات الفكرية الحاقدة والمنحرفة أو التيارات السياسية الخاصة التي كان يستخدمها الحاكم المنحرف لدعم زعامته.) [1].

المطلب الرابع: الأشاعرة.

أولاً: تعريف الأشاعرة:

هم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المنتسب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما "[2] والأشعري هو " أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري .رضي أللله عنه .صاحب رسول الله .صلى الله عليه وسلم .هو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب السنة، وإليه تنسب الطائفة الأشعرية، ومولده سنة سبعين ومائتين، وقيل ستين ومائتين بالبصرة. وتوفي سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة، وقيل: سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، وقيل: سنة ثلاثين فجأة ببغداد ودفن بين الكرخ وباب

---

[1] مقال بعنوان: دور اهل البيت عليهم السلام في حياة الرسالة الاسلامية، للكاتب السيد منذر الحكيم، ضمن وقائع صحيفة بلادي

http://beladitoday.com/index.php?aa=pdf.

[2] الملل والنحل / ١: ٩٣ .

البصرة، رحمه الله تعالى"[1] برع .رحمه أللـه .في علمي الكلام والجدل على طريقة أهل الاعتزال حتى صار رأسا من رؤوسهم، ولما كمل نضجه العقلي ترجحت عنده مذاهب أهل السنة وأدلتهم فأعلن خروجه على المعتزلة، وذلك بعد مناظرات مع شيخه الجبائي، قيل بلغت مؤلفاته أكثر من ثلاثمائة من أهمها مقالات الإسلاميين وإثبات القياس، وألمع في الرد على أهل الزيغ والبدع[2].

ثانياً: نشأة الأشاعرة .

يعد ظهور المذهب الفكري الأشعري انطلاقة سليمة في الساحة العقدية ونقطة تحول هامة في الفكر الإسلامي بشكل عام وبعلم الكلام بشكل خاص " فمن جهة أصبحت أغلبية أهل السنة وهم بدورهم يمثلون أغلبية المسلمين تدين بهذا المذهب الكلامي ومن جهة أخرى أصبح علم الكلام معترفا به كعلم من علوم الدين " [3].

---

(١)وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، ت: ٦٨١هـ، تحقيق :إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م. /٣:٢٨٤.

(٢) ينظر: موسوعة الفرق والجماعات والأحزاب المعاصرة/ ٥١ .

(٣)الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات النشأة التاريخ العقيدة التوزع الجغرافي، سعد رستم، دار الأوائل، سوريا، ط١، ٢٠٠٤. / ٢٣ .

ثالثاً: دور الأشاعرة في صياغة الفكر الإسلامي.

يُعدُّ الاشاعرة تياراً تجديدياً مصححاً لما جرى من اخطاء في ميدان الساحة العقلية والفكر الإسلامي بسبب النهج الاعتزالي الذي انتشر بين المسلمين.

"لقد قام التيار الأشعري بمحاولة تصحيحية إذ أدرك أبو الحسن الأشعري الذي كان معتزلياً، التطرف الديني الذي أصاب التيار المعتزلي وأثبت هو وتلامذة مدرسته الكبار من أمثال الباقلاني والجويني والغزالي والفخر الرازي وغيرهم إن العقل المتنازع فيه لا يمكن أن يقدم على النصوص قاطعة الدلالة "[1].

وقد خالفت الأشاعرة المعتزلة في الكثير من العقائد، ومنها مخالفتهم المعتزلة بجواز رؤية الله سبحانه وتعالى وقد " أطبقت الأشاعرة وغيرهم من أهل الحق على جواز رؤية الباري عقلا ووقوعها شرعا "[2].

ومن هنا جاء الإمام ابو الحسن الأشعري رحمه الله، بمنظومة عقدية، ومنهج وسطي عادل بين الجميع، يقرب وجهات نظر العقليين والنقليين، لا يجنح فيه الى عقلانية المعتزلة، ولا يقف عند ظاهر النص الذي التزمه الحشوية فجمدوا النص نهائياً.

---

[1] الفكر الإسلامي تقويمه وتجديده، لمحسن عبد الحميد/ ٢٦.

[2] غاية المرام في علم الكلام، سيف الدين الآمدي، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٤. / ١: ١٥٩

مما أدى إلى إعادة الوحدة الإسلامية واحترام النقل الصريح العقل الصحيح معاً، وإقامة توازن وتكامل بين الأدلة العقلية والأدلة الشرعية ؛ وهذه الوسطية تتبلور في مجال المعرفة في توسطه بين الوحي والعقل، وفي الإلهيات بين التشبيه والتنزيه، وفي الإنسانيات بين الجبر والتفويض .

هكذا تمت صياغة الفكر الإسلامي على مر التاريخ منذ خروج الخوارج على الإمام علي عليه السلام واطلاقهم شعار التكفير، واختلافهم في مسألة مرتكب الكبيرة التي دفعت باقي المسلمين للإدلاء بدلوهم ونصرة الدين، ابتداءً من الشيعة الذين حملوا على عاتقهم همَّ الدفاع عن آل البيت الأطهار، وانتهاءً بالأشاعرة الذين وقفوا امام التيارات الفكرية الفلسفية، ووازنوا بين العقل والنقل .

المبحث الثاني: اثر الخلاف الفكري في صياغة الفكر الاسلامي.

المطلب الاول: النشأة والتأسيس للفكر الإسلامي.

إن عصر النبوة كان عصراً مستنيراً بالوحي وكانت آيات القرآن تتنزل لتعليم الناس الدين فقد تنزل القرآن الكريم على مدى ثلاثة وعشرين عاماً في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكانت عملية تلقي الوحي تحقق عملاً تربوياً لإعداد أمة الإسلام التي ستغير العالم بأنوار الرسالة الكاملة والأخيرة على الأرض، وبناءً على هذه الحقيقة فإن السمة العامة لعصر النبوة كانت التفاعل مع الوحي بشقيه الكتاب والسنة، وتحويل تعاليم القرآن إلى واقع عملي وخطوات لبناء المشروع الحضاري الذي تمثل بالإسلام ديناً حضارياً لمواجهة الحضارات المادية التي كانت سائدة، ولقد تنزلت آيات كريمة تثني على جيل الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين بايعوا وجاهدوا مع رسول الله ﷺ لبناء هذه التجربة العظيمة، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو

---

[1] سورة الفتح: الآية (١٨).

ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

وكان عصر النبوة عصر بناء وعصر عمل ولم يكن عصر جدل وعاش جيل الصحابة يتلقى القرآن وتوجيهات النبي ﷺ بسعادة غامرة وإيمان عميق وفهم دقيق ورغبة صادقة بالاتباع فلم يجرؤ الصحابة على كثرة الأسئلة، وقد وردت في القرآن الكريم آيات قليلة إجابات عن أسئلة سألها الصحابة الكرام، وكانت الآيات تستفتح بقوله تعالى: يسألونك عن الشهر الحرام....، ويسألونك عن الأهلة....، ويسألونك عن المحيض... وهكذا، فقد كان عصر النبوة عصر تطبيق القرآن واتباع السنة، وأعظم من طبق القرآن الكريم وحوّله إلى سلوك هو الرسول ﷺ، فقد ورد في الحديث (أنه ﷺ كان خلقه القرآن)[2]، وكان مهمة الصحابة استلام الوحي والاجتهاد في تطبيقه والتسليم بما ورد فيه من حقائق كما قال تعالى:

---

(١) سورة الحشر: الآيات (٨-١٠).

(٢) الحديث رواه مسلم، وفي شرح مسلم للنووي: ٣/٢٥٨، رقم الحديث في مسلم (٧٤٦)، عن موقع الاسلام سؤال وجواب/ المشرف العام الشيخ محمد صالح المنجد.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ النساء: ٦٥

بعد وفاة الرسول ﷺ: بعد الرحيل إلى الباري (عز وجل) عاشت الأمة صدمة عنيفة ذهل على أثرها أكثر الصحابة، من هنا بدأت تجربة الفكر الإسلامي في الظهور في عصر غاب فيه الوحي، وأطلق العقل الذي تربى على تلقي الوحي في عصر النبوة لكي يمارس دوره في الاستدلال واستنباط الحلول للمشكلات التي ستواجهه، وكما ذكرنا ان العقل البشري فيه استعداد للاختلاف، وإن هذا الخلاف قد يكون مذموماً، وقد يكون اختلافاً إيجابياً يشحذ الفكر وينمي القدرات العقلية ويحقق تفاعلاً متوازناً بين الواقع والنصوص، وبناء على ذلك فإن الصحابة لم يختلفوا في مجالات ترسخت في البناء التربوي الذي حققه رسول الله ﷺ، فلم يختلفوا في مسائل الإيمان بالله تعالى وتوحيده، ولم يختلفوا في القرآن الكريم ودور الرسول ﷺ في بيان الشريعة، وكذلك لم يختلفوا في مسائل الإيمان العملية في الصلاة والزكاة والحج والصيام، وإنما كانت هناك آراء فقهية متنوعة لفهم النصوص لم تؤدي إلى تنازع وتصارع، وكان خلافهم في مسائل غير هذه وهي مسائل السياسة وبعض التطبيقات العملية للنصوص الشرعية، وكانت قليلة جداً، والحقيقة التي أثبتناها هي ان الاختلاف ملازم للطبيعة البشرية كما قال افلاطون: (إن الحق لم

يصبه الناس في كل وجوهه ولا أخطأوه في كل وجوهه، بل أصاب كل إنسان جهة، ومثال ذلك عميان انطلقوا إلى فيل، وأخذ كل منهم جارحة بيده فأخذوا يصفون الفيل بحسب ما كان يتحسس بيده..، وأسباب الاختلاف عديدة منها غموض الموضوع في ذاته ومنها اختلاف الرغبات والشهوات ومنها اختلاف الاتجاه واختلاف المدارك ومنها تقليد السابقين ومنها الرياسة وحب السلطان)[1].

المطلب الثاني: أسباب اختلاف المسلمين

يمكن إيجاز أسباب اختلاف المسلمين وهي عديدة بما يأتي:

١- التراجع عن المستوى الإيماني والعقدي الذي كان في حياته ﷺ، وهذا عند من لم يكن له حظ من التربية النبوية ممن أسلم حديثاً في عصر النبوة، وبناء على هذا الأساس حدثت حوادث الردة عند بعض القبائل البعيدة عن المراكز الإسلامية الكبرى مكة والمدينة والطائف، وإلى هذا أشار الرسول ﷺ في الحديث (استيقظ النبي ﷺ محمراً وجهه يقول: (لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شر قد اقترب)[2].

---

(١) ينظر: تاريخ المذاهب الإسلامية، الإمام محمد أبو زهرة: ص١١ وما بعدها.

(٢) الحديث في البخاري: ٣/ ١٣١٧، رقم الحديث: ٣٤٠٣، ومسلم: ٤/ ٢٢٠٨، رقم ٢٨٨٠، وفي النسائي وابن ماجه.

وكذلك في حديث افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة[1]، وهذا الحديث حصل عليه كلام كثير وإن علماء الحديث أشاروا إلى ان زيادة (كلها في النار) موضوعة، وكذلك العدد الذي ذكر في الحديث لعدد الفرق مخالف لمقاصد الإسلام الكبرى، كما ذكر ذلك بعض العلماء ان أمة الإسلام هي خير الأمم فكيف تزيد في فرقتها على اليهود والنصارى؟

والراجح ان الحديث يصرف معناه على التحذير من الفرقة وليس على الحكم على المخالفين وإنما على ان الضعف في الفرقة والقوة في الوحدة، فالحديث توجيه للأمة للتمسك بالكتاب الذي هو حبل الله المتين والسنة المشرفة التي هي الوسيلة الوحيدة، وللتمكن من التمسك بكتاب الله تعالى.

٦. ومن أسباب الاختلاف: العصبية للقبائل والانحياز للمناطق كما كان أصحاب مسيلمة يقولون (كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر)، وهو مثل أطلقه أصحاب مسيلمة الكذاب روى في كتب التاريخ كما في البداية والنهاية، لابن كثير احداث مقتل مسيلمة، وفي الحديث عنه ﷺ (ليس منا من دعا إلى عصبية)[2]، وقد ظهرت العصبية بعد وفاة النبي ﷺ وتحديداً في أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتقوت على يد

---

(١) الحديث في الترمذي رقم ٢٦٤٠، وقال عنه حسن صحيح، والحاكم رقم (١٠)، وابن حبان رقم ٦٢٤٧.

(٢) أبو داود، رقم الحديث: ٥١٢١.

الخوارج فقد انتشر مذهبهم في القبائل البدوية من ربيعة لا من القبائل المضرية، وكما هو معروف ان بداية المطالبة بدم عثمان كانت على يد الأمويين على اعتبار انهم عصبة عثمان وهم أولى بمن يطالب بدمه، وكان هذا الأمر عاملاً قوياً في تأجيج الصراع بين الأمويين في الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان وبين الإمام علي (عليه السلام) وبني هاشم.

٣ـ ومن أسباب الاختلاف بين المسلمين تداخلهم واحتكاكهم بأهل الديانات القديمة الذين دخلوا في الإسلام حديثاً، وأخذوا يتلقون عقائد الإسلام على ضوء ما كانوا يحملونه من العقائد التي كانت مترسبة في داخل وعيهم، وكان التفاعل بين عقائد الإسلام وبقايا هذه العقائد قد أثار شبهات الجبر والاختيار، فكانت أول المشاكل الفكرية التي واجهت المسلمين هي مشكلة القضاء والقدر، وهل الإنسان مسير أم مخير، وكذلك صفات الله تعالى وعلاقتها بالذات الإلهية.

٤ـ التنازع على الخلافة: وهو من الأسباب الجوهرية التي أسست للخلاف السياسي الذي كان أساساً لنشوء الفرق والصراع بين المسلمين بسبب عدم وجود نص صريح وجلي قطعي الثبوت قطعي الدلالة لمن يخلف النبي ﷺ.

٥ـ الترجمة: إن حركة الترجمة أدت إلى دخول الفكر الفلسفي اليوناني في المنظومة الإسلامية وتأثر بالفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطي الكثير من مفكري الإسلام عن طريق اقتباس الأسلوب الفلسفي في عرض

الفكر الديني، وذلك للرد على أهل النحل الأخرى عندما كانوا يثيرون الشبهات حول الإسلام وهؤلاء لم يكونوا يؤمنون بالأدلة الشرعية القرآن والسنة، فاضطر بعض العلماء إلى الاستعانة بالفلسفة والمنطق الأرسطي والقياس العقلي للرد على هؤلاء وإقناعهم للتخلي عن عقائدهم القديمة.

٦- من الأسباب المهمة للاختلاف بين المسلمين هو ورود نصوص قرآنية فيها المتشابهات، وبعجز العقل البشري عن الإحاطة بها قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1]. ومن المتشابهات آيات الصفات الخبرية مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[2].

٧- الإسرائيليات: وهي الروايات التي دخلت التراث الإسلامي عن طريق من أسلم من أهل الكتاب استعان بها العلماء وبعض الدارسين لتفسير آيات القرآن الكريم، وكذلك لمعرفة قصص الأنبياء، وقد شاع في عصر عثمان (رضي الله عنه) ظهور طبقة من القصاص في المساجد، وكره الإمام علي (عليه السلام) هذه الظاهرة (حتى أخرج القصاص من المساجد لما كانوا يضعونه في اذهان الناس من خرافات وأساطير بعضها

---

[1] سورة آل عمران: الآية (٧).

[2] سورة طه: الآية (٥).

مأخوذ من الديانات السابقة بعد أن دخلها التحريف.. وربما كان هذا القصص السبب في دخول الكثير من الإسرائيليات في كتب التفسير والمغازي والسير أي كتب التاريخ)[1].

هذه هي أهم الأسباب في حصول الاختلاف الفكري بين المسلمين، ولكن لو تتبعنا جذور الخلاف نجد أن كل الاتجاهات حاولت أن تبرر شرعيتها بتوفير غطاء مرجعي من الكتاب والسنة، من هنا نشأت مسألة التأويل للنص القرآني، وعن طريق التأويل الذي يمكن وصفه بأنه صرف المعنى الظاهري للنص إلى معنى آخر لوجود قرائن تمنع أخذ المعنى الظاهر للنص القرآني، فكان انقسام الفكر إلى تيارات ومدارس نتيجة حتمية للاختلاف في فهم النص الديني.. وتحول إلى انقسام ضار وغير مشروع حين يجنح مذهب أو تيار إلى الانغلاق الذاتي والتشبع بفكرة مزعومة عن حيازه الحقيقة المطلقة وتكفير المخالفين وإخراجهم من الملة.. وبذلك يتم التخلي عن دائرة الاجتهاد في فهم الدين والدخول في لعبة الاستيلاء على المعنى قصد احتكار الدين.. وهذه الظاهرة أدت إلى تحجيم الاندماج الديني للمجتمع، فتكون المذهبية تمثيلاً لظاهرة انعدام الاندماج الديني في الإسلام وفي غيره من الأديان، وتتحول الفرق والتيارات إلى سجون مغلقة ومعازل فاصلة.. ان الخطأ الذي وقعت فيه

(١) ينظر: تاريخ المذاهب الإسلامية/ م. س/ حول أسباب الاختلاف: ص١٣ وما بعدها.

السلفيات والأرثوذكسيات هو إقامة فاصل بين النص الديني والبشر المؤمنين به وتتحول بناء على ذلك كل المفاهيم البشرية إلى ظاهرة دينية مقدسة ونظام قيم وطريقة حياة، فالدين كما هو معلوم نص صامت بين دفتين يحتاج إلى من ينطقه، وإذا كان الرجال من ينطقونه على حد تعبير الإمام علي (عليه السلام) ويضخون فيه الحياة فهم إنما يتأولونه في اتصالهم به فيتحول الدين إلى حصيلة ذلك التأويل الذي لا يكون فيه النص إلا عنصراً من عناصر أخرى تتدخل في تشكيل ما يسمى بشبكة التأويل، وهكذا فالدين ليس نصاً فحسب وإنما ينبغي النظر إليه هو كل يتشكل من النص والجماعة والتأويل، ولا يصبح التمذهب خطراً على وحدة المجتمع حين يكون مجرد اختلاف وتخندق في الدين وراء يقينيات مغلقة، لكنه يصبح كذلك حين يتدخل في السياسة أو يتحول إلى لاعب في الحياة السياسية)[1]، وهذا التشخيص يتحقق في حالة تحول الخلاف السياسي إلى خلاف عقدي يؤدي حالة من التصارع على السلطة واستباحة دماء المخالفين، وهذا ما حصل في بدايات الخلاف السياسي الذي حصل بعد وفاة الرسولﷺ الذي سرعان ما اختفى، وتوحدت الأمة ثم ثار من جديد بعد مقتل عثمان ﷺ الخليفة الثالث، ثم تأجج بعد مقتل الإمام علي (عليه السلام) وتفرقت الأمة إلى شيع وأحزاب متناحرة وظهرت بدعة

---

[1] ينظر: المذهبية تاريخاً وراهناً واخطاراً، عبد الإله بلقيز، مجلة المستقبل العربي، العدد ٤٢٣ لسنة ٢٠١٤: ص١٦ وما بعدها.

التكفير واستباحة دماء المسلمين فيما بينهم، وكانت أولى المشاكل السياسية هي مسألة الخلافة التي سنتعرض لها ولبعض المسائل المهمة في الفكر الإسلامي في مرحلة التأسيس بعد رحيل المصطفىﷺ، وكيف تكونت جذور الفرق والأحزاب والتيارات السياسية ثم العقائدية والفكرية فيما بعد.

الفصل الثالث

مجالات الفكر الإسلامي ومحاوره

المسلمين؛ لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتاً تؤيده أرقام الحساب ودلالات اللفظ، وتلك المزية

هي التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعية والتكليف.

وفي القرآن الكريم أكثر من ثمانين آية تدعو الى التفكر واستخدام العقل مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1]، والقرآن الكريم في الوقت الذي استوفى فيه أصول العقيدة الإسلامية وأقام البرهان عليها فإنه حكى عقائد المخالفين وأبطلها بالحجة، فقد رد على منكري النبوات، وكذلك رد على منكري البعث في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

وكذلك رد على عبدة الكواكب ورد على عبدة الملائكة ورد على اليهود والنصارى، ولكن المنهج القرآني لم يكن يعتمد الجدل لأنه يورث الكراهية[3]، ولا يحقق الغاية من سياق الدليل واكتفى القرآن بعرض حقائق الدين كأسلوب معجز، وعلى هذا الأساس كان العقل يؤدي دوراً مهماً في

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٦٤).

(٢) سورة يس: الآيتان (٧٨-٧٩).

(٣) ينظر: أصول الدين الإسلامي، م. ن: ص٢٦-٣٥.

علم أصول الدين وبسببه تم التحقق من الكثير من العقائد، وتم إبطال الكثير من الشبهات، لذلك يعرف أصول الدين محمد فريد وجدي بقوله: "علم أصول الدين: علم يشتمل على بيان الآراء والمعتقدات التي صرح بها رسول الله ﷺ وإثباتها بالأدلة العقلية وتزييف كل ما خالفها"(١).

وأصول الدين مصطلح مركب يعني الأسس التي يقوم عليها الدين فهو أصل العلوم، وأدخله العلماء بعد التدوين بعلم الكلام؛ لأن الوظيفة واحدة. وقد حدد علماء الإسلام أصول الدين كما ذكرنا سابقاً وكما يأتي:

أ. أهل السنة: أصول الدين عندهم هي أركان الإيمان المذكورة في القرآن الكريم، وهي:

١. الإيمان بالله.

٢. الإيمان بالرسل.

٣. الإيمان بالكتب السماوية.

٤. الإيمان باليوم الآخر.

٥. الإيمان بالملائكة.

٦. الإيمان بالقدر خيره وشره.

وهذه الأركان اتفق عليها جمهور أهل السنة.

ب. **الامامية**: اتفق جمهور الشيعة الامامية الاثني عشرية على ان أصول الدين خمسة وهي:

---

(١) أصول الدين الإسلامي، م. س، يأخذ عن دائرة المعارف، لمحمد فريد وجدي، ج٦: ص٦٢٠

١. التوحيد.

٢. العدل.

٣. النبوة.

٤. الإمامة.

٥. المعاد.

ج .**المعتزلة:** وهم فرقة إسلامية استعملت العقل في إثبات العقائد والدفاع عنها، وكان ظهور هذه الفرقة في بداية القرن الثاني للهجرة، وأهم رجالها واصل بن عطاء (ت١٣١هـ)، وقد اندرست هذه الفرقة ولكن بقي تأثيرها في باقي الفرق، وتركوا تراثاً ضخماً في مجال أصول الدين وعلم الكلام هؤلاء اتفقوا على ان أصول الدين خمسة وهي:

١. التوحيد.

٢. العدل.

٣. المنزلة بين المنزلين.

٤. الوعد والوعيد.

٥. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذه الأصول عندهم من آمن بها فهو منهم ومن لم يؤمن بواحدة فهو ليس منهم، فهم يؤكدون على ضرورة الإيمان بهذه الخمسة.

كانت تلك أصول الدين التي استنبطها علماء المسلمين من مصادر الإسلام الثابتة القرآن والسنة، ولكن هناك أصول حققت إجماع الفرق والمذاهب وهي الأصول المشتركة ويمكن بيانها كما يأتي:

١. التوحيد.

٢. العدل.

٣. النبوة.

٤. الإمامة.

٥. المعاد.

ج .المعتزلة: وهم فرقة إسلامية استعملت العقل في إثبات العقائد والدفاع عنها، وكان ظهور هذه الفرقة في بداية القرن الثاني للهجرة، وأهم رجالها واصل بن عطاء (ت١٣١هـ)، وقد اندرست هذه الفرقة ولكن بقي تأثيرها في باقي الفرق، وتركوا تراثاً ضخماً في مجال أصول الدين وعلم الكلام هؤلاء اتفقوا على ان أصول الدين خمسة وهي:

١. التوحيد.

٢. العدل.

٣. المنزلة بين المنزلين.

٤. الوعد والوعيد.

٥. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذه الأصول عندهم من آمن بها فهو منهم ومن لم يؤمن بواحدة فهو ليس منهم، فهم يؤكدون على ضرورة الإيمان بهذه الخمسة.

كانت تلك أصول الدين التي استنبطها علماء المسلمين من مصادر الإسلام الثابتة القرآن والسنة، ولكن هناك أصول حققت إجماع الفرق والمذاهب وهي الأصول المشتركة ويمكن بيانها كما يأتي:

١. الاعتقاد إجمالاً بوجود الله تعالى وبجميع صفاته الثبوتية الراجعة إلى انه تعالى متصف بجميع صفات الكمال، وكل ما ينفي عنه صفات النقص وينزهه عنه.. ولا يلزم الاعتقاد بذلك تفصيلاً وإنما يكفي الإيمان به تعالى إلهاً خالقاً.

٢. الاعتقاد بنبوة محمد ﷺ اعتقاداً وانقياداً بصدق الرسالة ومحبة شاملة لتعاليمه وسيرته.

٣. الاعتقاد باليوم الآخر والبعث بعد الموت وبالثواب والحساب، وهذه الأصول الثلاثة من آمن بها إيماناً إجمالياً بدون تفصيل وصدق بكل ما جاء به الرسول ﷺ ولم ينكر شيئاً مما علم من الدين بالضرورة كالإيمان بالفرائض فإنه يعتبر مؤمناً ومسلماً من أمة السلام المرحومة.

ويعتبر كافراً كل من لم يعتقد ويؤمن بهذه الأصول الثلاثة أو أنكر ضرورية من ضروريات الدين، وذلك يتصور على وجوه:

١. أن ينكر قبول ما علمه بواسطة الضرورة من الدين كالفرائض.

٢. أن ينكر انه مما جاء به النبي ﷺ.

٣. أن ينكر انه يخالف الحكمة والمصلحة..)[1].

---

(١) أصول الدين الإسلامي، م. س: ص٦٧ .

الأصل الديني والأصل المذهبي

توضح لدينا أن الدين يقوم على أسس عقدية وهو أساس لكل عمل أو علم أو نظر في إطار الدين الإسلامي، وهناك أسس متفق عليها كما أشرنا، وأسس أو أصول اختلف فيها بين المذاهب الإسلامية وهي تشكل أصولاً لكل مذهب آمن بها وخالف بقية المذاهب، ولكن هذا الخلاف كان بسبب النظرة إلى النص والتأويل لدلالة الألفاظ في النصوص المرجعية، وعلى هذا فإن الأصول تنقسم على قسمين:

١. الأصل الديني: وهو الأصل العقدي المعلوم عند أتباع الدين جميعاً كالإيمان بالله والنبوات.

٢. الأصل المذهبي: وهو الأصل المعلوم عند جميع أهل المذهب كالإيمان بالقدر عند أهل السنة والامامة عند الشيعة.

والأصل الديني يستلزم إنكاره الخروج من الدين إلى الكفر، والأصل المذهبي يستلزم إنكاره الخروج من المذهب لا الكفر، أما إذا كان معتقداً بصحة صدور الأصل المذهبي عن النبي ﷺ وأنكره فإنه حينئذ يعد خروجاً من الدين؛ لأنه أنكر أصلاً دينياً وهو النبوة.

ثانيا: الفقه الاسلامي وأصول الفقه واثرهما الفكري

أصول الفقه: يعرفه العلماء اصطلاحا: هو العلم بالأحكام الشرعية العلمية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، وهو القواعد والأدلة العامة التي يتوصل بها إلى الفقه، مثل القاعدة الأصولية الأمر للوجوب ما لم تصرفه قرينه عن ذلك والنهي للتحريم حتى تصرفه قرينه عن ذلك، والأدلة التفصيلية تشمل الأدلة والبراهين التي يستند إليها في معرفة الأحكام الشرعية مثل القرآن والسنة والاجماع والقياس.

أما الفقه: فهو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية[1]، مثل وجوب الصلاة وحرمة الخمر، ونشأ علم أصول الفقه والفقه بعد ظهور الحاجة إلى الاجتهاد ومعرفة أحكام الشرع فيما استجد من أمور الحوادث والمستجدات ولذلك كانت الفقه يعبر عن إجابة الأدلة الشرعية لما يطرأ من حوادث لم تحدث في عصر النبوة أو حدث ما يشابهها وبني على المشابه بالقياس في الحكم، واختص علم أصول الفقه بالمسائل العملية في حين اختص علم أصول الدين بالمسائل النظرية، فالأول كان يعالج مسائل الحلال والحرام وما يترتب عليها من أعمال في سلوك الفرد والمجتمع ابتداء من العبادات مروراً بالمعاملات وانتهاءً بالحدود والأحكام السلطانية أما علم أصول الدين فكان يعالج مسائل الشبهات والأدلة

(١) تيسير علم أصول الفقه، عبدالله بن يوسف الجديع، ص١١-١٢.

النظرية والعقلية والفلسفية المرتبطة بالعقائد والدين اثباتاً ودفعاً مثل إثبات وجود الله ورد شبهات الملحدين والمجادلين من أهل الباطل.

نشأة المذاهب الفقهية.

لقد بدأت نشأة الفقه تدريجياً في حياة النبي صلّى الله عليه وآله وسلم، وفي عصر آل البيت عليهم السلام و الصحابة الكرام، وكان سبب نشوئه وظهوره المبكر هو غياب النبي صلّى الله عليه وآله وسلم، وحاجة الناس الماسة إلى معرفة أحكام الوقائع الجديدة، لان لكل واقعة موقفا شرعيا، فعندها ظهر خطان اساسيان في الفقه متمثلان بخط اهل البيت والصحابة، والخط الاول ظل ملتزما بمنهج أهل البيت، وانه ظل يعيش عصر النص الى زمن الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري ٣٢٩هـ إذ يعدون اهل البيت) امتدادا لرسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)، واما الخط الثاني فبدأ بإيجاد سبل ووسائل تغطي هذا النقص الحاصل من غياب المشرع بفتح باب الاجتهاد، وظهرت قبال الخط الاول المذاهب الاربعة، إذ ظلت الحاجة إلى الفقه قائمة في كل زمان لتنظيم علاقات الناس الاجتماعية، ومعرفة الحقوق والواجبات لكل إنسان، وإيفاء المصالح المتجددة، ودرء المضار والمفاسد المتأصلة والطارئة، وتطور الفقه الاسلامي في إتجاه المذاهب الإسلامية وكان من أهم مصادر التشريع عند المذاهب الإسلامية الاربعة المشهورة هي القرآن والسنة والاجماع

والقياس وهذه متفق عليها ما عدا القياس الذي ينكره البعض باعتباره عمل عقلي وهناك أدلة أخرى أقل درجة من الأربعة السابقة وحولها خلاف أيضاً ويمكن مراجعة مصادر أصول الفقه للاستزادة.

والاجماع يعرفه أكثر أهل المذاهب بأنه ما اتفق عليه المسلمون من الأحكام الثابتة في الكتاب والسنة[1] وهو يقترب من تعريف الإمامية للإجماع الذي سيأتي وفيه اثبتوا أن الاجماع ينبغي موافقة الإمام المعصوم وعند الإمامية السنة تشمل ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة عليهم السلام.

أولا: المذهب الحنفي: وينسب الى الإمام أبي حنيفة عتيك بن زوطي المعروف بالنعمان بن ثابت (٨٠ - ١٥٠ هـ)، ولد في الكوفة وتوفي في بغداد وأصله فارسي . وكان يعد فقيه العراق وصاحب المذهب المتبع في أكثر البلدان الإسلامية، ولقب بالإمام الأعظم، وكان الإمام أبو حنيفة يستنبط فقهه من القرآن الكريم وما صح عنده من الحديث مع توسع في استعمال الرأي والقياس . وقد تلقى الدرس لمدة سنتين عند الإمام جعفر الصادق عليه السلام إذ اشتهر عنه قوله في مدح الإمام: (لولا السنتان لهلك النعمان) . وكان أقوى عوامل انتشار مذهبه هو استلام تلميذه أبو يوسف لمنصب رئاسة القضاء في حكومة هارون العباسي والذي كان مقربا " جدا " من

---

(١) تيسير أصول الفقه، ص ١٥٠.

الخليفة . ومن أشهر رجال الخليفة محمد الشيباني وزفر بن الهذيل والحسن اللؤلؤي . وقد ألف الشيباني عدة كتب فقهية لها درجة الاعتبار الأكبر عند الحنفية، وله آراء كثيرة خالف فيها الإمام أبو حنيفة . وفي العصور اللاحقة، تبنت الدولة العثمانية المذهب الحنفي ودعمته بكل قوة حتى صار مذهبها الرسمي، وساعدت على انتشاره وذلك بسبب عدم اشتراط الحنفية في الخليفة أن يكون قرشيا " .

ثانيا: المذهب المالكي: وصاحبه الإمام مالك بن أنس (٩٣-١٧٩هـ) المولود في المدينة وهو يمني الأصل . وقد تلقى العلم عن الشيخ ربيعة الرأي والإمام جعفر الصادق عليه السلام .

وكان يستنبط الأحكام بصورة رئيسة وموسعة على القرآن والسنة، ولم يكن للرأي والقياس عنده بالمكانة نفسها التي كانت عند الحنفية، وله كتاب (الموطأ) أورد فيه الكثير من الأحاديث النبوية .

وقد حاول الخلفاء العباسيون الذين سبقوا الرشيد تبني مذهب مالك والعمل على نشره، حتى أن المنصور طلب من مالك نشر مذهبه بالقوة للحيلولة دون انتشار مذهب الإمام الصادق والذي بلغت مدرسته الفقهية آنذاك أوجها، إلا أن مالك رفض طلب الخليفة ثم حاول الرشيد فعل ذلك مجددا " خلال سنوات حكمه الأولى حين كان يعلن: (لا يفتي إلا مالك) . وكان انتشار مذهبه على أيدي القضاة والأمراء في الأندلس وشمال

إفريقيا إذ حل مذهبي الأوزاعي والظاهري اللذين كانا سائدين هناك . ولا زال المذهب المالكي المذهب الرئيسي في بلاد المغرب العربي . وأهم دعاة المذهب هم: القاضي أبو بكر العربي وابن عبد البر القرطبي والقاضي عياض السبتي وأبو الوليد الباجي وابن القطان الفاسي .

ثالثا: المذهب الشافعي: وصاحبه محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ) المولود في غزة، وقد انتشر مذهبه أولا " في مصر ثم صار له أتباع في العراق وخراسان وشمال إفريقيا والأندلس . وهو يتميز من بين المذاهب الأربعة بتنظيمه على أصول موضوعة وقواعد ثابتة ومضبوطة ضبطا " دقيقا "، والمذهب بجملته وسط بين أهل الرأي وأهل الحديث . وقد كان للدولة الأيوبية في مصر بقيادة صلاح الدين العامل الأقوى في نشر مذهبه هناك حيث منع تدريس المذهب الشيعي في الجامع الأزهر الذي أسسه الفاطميون، واستبدل بتدريس مذاهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك، وبنى لهم المدارس ورغب الناس فيها . ومن أشهر رجال الشافعية أبو حامد الغزالي وأبو بكر أحمد بن الحسين والبيهقي.

رابعا: المذهب الحنبلي: وصاحبه الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) المولود في بغداد، وهو آخر المذاهب الأربعة وأقلها أتباعا. وقد كان ابن حنبل في رأي العلماء القدماء - كابن جرير وابن قتيبة والمقدسي وابن عبد البر - من رجال الحديث لا من الفقهاء وقال فيه ابن

خلدون: فأما أحمد بن حنبل فمقلدوه قليلون لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية بعضها ببعض . وما يشهد على ذلك أنه لم يكتب أي كتاب في الفقه، وإنما اشتهر بكتابه المعروف بمسند أحمد والذي يحوي على أربعين ألف حديث . وله أيضا " كتب أخرى كطاعة الرسول، الناسخ والمنسوخ، والعلل . وقد كاد هذا المذهب - لقلة أتباعه - أن يضمحل بالتدريج لولا تولي عبد الله الحجازي القضاء عام ٧٣٨ هجرية .

ومن أشهر رجال الحنابلة الذين قاموا بنشر المذهب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية . وفي العصور المتأخرة محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة الوهابية الذي قام بنشر المذهب الحنبلي في نجد .

خامسا: المذهب الإمامي الاثني عشرية: وسمي بهذا الاسم لأنه قال بإمامة الأئمة الاثني عشر[1]، وسميت أيضا بالشيعة الإمامية لما علقته من الاهتمام بالإمام وعصمته، ويسمى بالمذهب الجعفري نسبة إلى الإمام جعفر الصادق ع (٨٣-١٤٨هـ).

وأدلة التشريع في مذهب الإمامية هي: الكتاب والسنة والإجماع والعقل . فالكتاب هو ما موجود بين الدفتين، لا كما يُفترى على الشيعة بان

---

[1] أولهم الإمام علي ، وولداه الحسن والحسين ، وعلي بن الحسن، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد ، وموسى بن جعفر ، وعلي بن موسى ، ومحمد بن علي ، وعلي بن محمد ، والحسن بن محمد ،و محمد بن الحسن الحجة(عليهم الاف التحية والسلام).

لهم كتاباً آخر غير القرآن وان الشيعة لا تقول بتحريف القرآن، وان القرآن ظاهر لفظه حجة على كل مسلم . والسنة هي قول وفعل وإقرار المعصوم، وهي حجة اذا كانت مقطوعة الصدور أي متواترة أو مقترنة بالمتواترة، كما تكون حجة اذا كانت ظنية الصدور مع وجود القرائن الدالة على صحتها، والإجماع لا يكون حجة ما لم يرد في قول المعصوم، أي يكون الإمام من ضمن المجمعين. والعقل يكون كاشف عن الحكم الشرعي لا دليل لان العقل لا يشرع، لا كما يتوهم لدى بعضهم .

وأهم كتبهم الفقهية كتاب الشرائع لجعفر بن الحسن الحلي المعروف بالمحقق (٦٧٢هـ)، وشرحه المسمى جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام لمحمد حسن النجفي (١٢٢٦هـ) .وتذكرة الفقهاء للحسن بن يوسف بن المطهر الحلي (٧٢٦هـ)، واللمعة الدمشقية للشهيد الأول محمد بن جمال الدين مكي العاملي (٧٨٦هـ)، وشرحه الروضة البهية لزين الدين الجبعي العاملي (٩٦٥هـ) وغيرها.

مفهوم الاجتهاد في الفقه الاسلامي.

الاجتهاد في اللغة: بفتح الجيم وضمّها . وذكروا له عدَّة معان:

الطاقة، أو ما جهد الإنسان من مرض أو أمر شاقّ، فهو مجهود، أوالغاية .

اما في الاصطلاح: ان مفهوم الاجتهاد مرّ بمراحل كثيرة قبل ان يصل الى المفهوم الذي عليه اكثر الفقهاء اليوم، إذ كان يمثل في مراحله الاولى الرأي الشخصي للمجتهد، ولم يكن يخرج عن القياس وما يقابله من الممارسات الاجتهادية الاخرى التي وضعت لتحديد الاحكام الشرعية فيما لا نص فيه كالاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها، يقول الشافعي(٢٠٤هـ): (نحكم بالاجماع ثم القياس وهو أضعف من هذا ولكنها منزلة ضرورة؛ لأنه لا يحل القياس والخبر موجود كما يكون التيمم طهارة في السفر عندْ الاعواز من الماء ولا يكون طهارة إذا وجد الماء إنما يكون طهارة في الاعواز) [1]. فان مفهومه لم يكن يدل على بذل الجهد لاستنباط الاحكام الشرعية من النص، وعد مصدرا من مصادر الاجتهاد قبال الكتاب والسنة والاجماع، وكان الاستنباط من الكتاب والسنة

---

[1] بابن قيم الجوزية:: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب: إعلام الموقعين عن رب العالمين:، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان شارك في التخريج: أبو عمر أحمد عبد الله أحمد الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية/الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هج ٤ ص٤٣.

والاجماع لا يسمى اجتهادا وانما اختص الاجتهاد في حال عدم وجود النص، وانه لا يصح الا في هذه الحال أي حال عدم وجود دليل في المصادر الثلاثة آنفة الذكر. يقول ابن القيم (٧٥١ هـ): (اجتهادُ الرأي إنما يُباح للمضطر كما تباح له الميتة والدم عند الضرورة، (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة: ١٧٣). ولهذا كان السلف لا يفتون بل يتحفظون من الفتوى، فعن البراء انه قال: (لقد رأيت ثلاثمائة من أهل بدر ما منهم من أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتوى)[١]. كما ان العديد من الصحابة كانوا لا يحللون ولا يحرمون الا بنص.

وقد نقل عن بعض الأئمة عليهم السلام نقدهم للاجتهاد بالرأي وعده الكثير من علماء السنة والشيعة بانه مذموم لأنه يخضع للرأي بلا ضابط من الشرع والنصوص؛ وذلك لان الاجتهاد بالرأي هو المنهي عنه باعتبار أنه يشكل اتجاها خطيرا في الفقه الإسلامي لا من ناحية النتائج التي انتهت إليها فقهيا فقط، وإنما باعتبار الاتجاه والطريق الخاطئ الذي انتهجته في عملية الاستنباط والمعتمد بالأساس على القياس الخاطئ والاستحسان بالهوى والمصالح المرسلة غير المتحققة والظنون وما أشبه ذلك من قضايا مرجعها إلى الرأي، وتنتهي في نهاية المطاف إلى انحراف خطير في فهم القرآن والسنة.

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: تحقيق: دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١- ١٤١٧ - ١٩٩٧ م، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

وبعد مرور الزمن اخذ مفهوم الاجتهاد يتغير، وبدأ يدخل الاجتهاد ميدان النص ولا يبقى محصورا فيما لا نص فيه، وهو ما نجده عند العلماء المتأخرين، يقول أبو الحسين البَصْري المعتزلي (٤٣٦هـ): (واعلم أن الفقهاء يعدون من مسائل الاجتهاد ما يستدل عليه بالكتاب كالنية في الوضوء والترتيب وأن الواو للترتيب أو للجمع وأن الفاء للتعقيب)[١].

وقال الغزالي(٥٠٥هـ): (بذل المجتهد وسعه في طلب الحكم ولا يطلق إلا على من يجهد نفسه ويستفرغ الوسع)[٢].

وعلى هذا المعنى انبثق مفهوم الاجتهاد لدى المتأخرين مثل الامدي و البيضاوي والفتوحي والشنقيطي وغيرهم.

أما عند الامامية فبقى الاجتهاد محملا بظلال المعنى القديم الى ان جاء المحقق الحلي (٦٧٦هـ) ونقح معناه وعرفه بأنه (بذل الجهد في استخراج الأحكام الشرعية، وبهذا الاعتبار يكون استخراج الاحكام من أدلة الشرع اجتهادا؛ لأنها تبتنى على اعتبارات نظرية ليست مستفادة من

---

(١) محمد بن علي الطيب أبو الحسين البَصْري المعتزلي: المعتمد في أصول الفقه: المحقق: خليل الميس ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ج٢ص٣٩٧.

(٢) الغزالي: أبي حامد محمد: المستصفى ، تحقيق: تصحيح: محمد عبد السلام عبد الشافي، ١٤١٧ – ١٩٩٦ م، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان: ٢٨١.

ظواهر النصوص في الأكثر..)[1]. فبعد هذا العرض لكلمة الاجتهاد التي مرّت بها نستطيع ان نخرج بتعريف استقر عليه أغلب الفقهاء وهو: هو بذل الجهد في استنباط الأحكام الشرعية من منابعها - وأهمها القرآن الكريم، والسنة . فهو لا يمثل الرأي الشخصي للفقيه وانما هو توظيف الأدوات والوسائل العلمية لاستنطاق النص والوقوف على أحكامه.

التجديد في الفقه .

الإسلام نظام متكامل فلا بد من ان يغطي جميع مرافق الحياة، والا كان الدين وقتي زائل لا يصلح لكل زمن، فكان الفقهاء على درجة عالية من الوعي وانتبهوا الى حاجة التجديد ان التجديد في الفقه حاجة ماسة وملحة؛ وذلك لانّ الوقائع المستحدثة تحتاج الى توصيف فقهي تكون ضمنه لما تقدم من ان لكل واقعة حكم شرعي، فتعقد الحياة وظهور المعاملات الحديثة والتطور الحاصل في جميع المرافق ادى الى حصول حركة تجديدية في الفقه حتى يغطي هذه المسائل وبيان الاحكام الشرعية لها، فمثلا ظهرت الى الساحة مسألة الاستنساخ البشري، واطفال الأنابيب، والترقيع والتجميل وغيرها التي لم تكن في عهد المشرع، ولمواكبة مستجدّات العصر ظهرت بعض النظريات المطروحة لحلّ هذه المشكلات عن طريق إيجاد

---

(٢) الحلي: نجم الدين أبي القاسم جعفر بن الحسن الهذلي: معارج الأصول، تحقيق: إعداد: محمد حسين الرضوي ، ط١-١٤٠٣، المطبعة: مطبعة سيد الشهداء (ع) - قم - ايران، الناشر: مؤسسة آل البيت (ع) للطباعة والنشر ١٧٩.

منهج ينظر بشكل مستجدّ إلى مفهوم الاستنباط وآلياته، وذكروا مجموعة من المناهج منها:

١. نظرية الأحكام الثانوية: وهي انها تكون في ضوء الأحكام الثانوية التي وضعها الشارع في حال الاضطرار وعدم استطاعة العبد الأحكام الأولى وهي التي شرعا اولا وأساسا لتلك الاحكام.

٢. نظرية الفراغ: وهذه النظرية تذهب الى أن الشريعة الإسلامية تركت للفقيه منطقة فارغة لمعالجة الامور المستحدثة على أن تعبير الفراغ لا يُراد به النقص وعدم الإحاطة والشمولية، بقدر ما يُراد به ترك فسحات تشريعية للمشرع (صانع القرار) ؛ حتى يملأها بما يراه ملائماً و الموضوع المطروح أمامه .

٣. حيثيات الزمان والمكان في استنباط الحكم الشرعي . يرى اصحاب هذه النظرية: (إنّ لعنصري الزمان والمكان دوراً حاسماً في الاجتهاد؛ فالمسألة التي كان لها سابقاً حكم خاص يُصبح لها حكمٌ جديد فيما لو وقع في ظلّ مجموعة من العلاقات الحاكمة على السياسة والاجتماع والاقتصاد في نظام ما، بمعنى أنّه بالمعرفة الدقيقة بالعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، يعلم أنّ الموضوع الحالي ـ الذي يبدو وكأنّه لا يختلف عن الموضوع الأول ـ هو موضوعٌ آخر، وتبعاً لذلك فهو يتطلّب حكماً جديداً). فبتغير الموضوع تتغير الاحكام لان الاحكام تابعة للموضوعات.